الإطار التاريخي لسورة براءة

للدكتور حسين مؤنس

يذهب الكثيرون من علماء القرآن الكريم والمفسرين إلى أن سورة براءة أو التوبة ، وهى التاسعة من سور المصحف المتداول هى آخر سورة كاملة أُنزلت على رسول الله ﷺ ويقولون : إنه أُنزلت على رسول الله بعد براءة آيات كثيرة دخلت فى سور أُخرى ، والعامل الرئيسى الذى يجعل العلماء يقولون ذلك هو : ارتباط هذه السورة الشديد بغزوة تبوك التى بدأت السورة تتنزل على رسول الله وهو عائد منها ، واتصال آياتها الوثيق بحوادث تلك الغزوة وما وقع فيها .

وإذا كانت سورة براءة أو التوبة تتميز فى مجموعها بوحدة الموضوع ، فكل آياتها تدور حول أحوال المدينة خلال العام التاسع للهجرة وبيان العيوب التى كانت فى ذلك المجتمع قبل انتقال الرسول إلى الملإ الأعلى بعام هجرى على وجه التقريب ، فهى ترتبط كذلك كل الارتباط بغزوة تبوك التى كانت فى رجب وشعبان سنة ٩ هجرية — (أكتوبر — ديسمبر سنة ٦٣٠ ميلادية)

وعندما نقرأ السورة وندرس الظروف التى وقعت فيها غزوة تبوك ندرك تمام الإدراك أن الله سبحانه وتعالى بعث رسوله فى هذه الغزوة اختباراً للمجتمع المدنى وبياناً لأحواله وعيوبه ووجوه التقى فيه لتجىء سورة التوبة بعد ذلك حداً فاصلاً بين العصر الذى كان يباح فيه للعربى أن يبقى على الجاهلية ، والوثنية أو يدخل الكعبة . فإن السورة نفسها تبدأ بوضع الحد الفاصل بين العصرين وذلك فى آياتها الأُولى :

« بَرَآءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إلى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِى الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ

مُعْجِزِى اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » .

ثم يلى ذلك أمر من الله بالحرب على المشركين وضرورة قتالهم حتى يتوبوا عن الكفر ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا هم فعلوا ذلك توقف المسلمون عن قتالهم .

«فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » .

وهذا فى ذاته حادث فاصل فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، وإذا نحن تأملناه مليًّا تبينًا لماذا نزلت هذه السورة بعد غزوة تبوك ، فإن غزوة تبوك آخر الغزوات التى قادها رسول الله ﷺ ، وقد سبق له أن قاد حوالى أربعًا وعشرين غزوة ، أما رقمها بين كل العمليات الحربية التى قادها رسول الله ﷺ فهو تسعة وثمانون ، وتبقى بعد ذلك بالإحصاء الدقيق سبعة أعمال عسكرية سيبعث بها رسول الله ﷺ خلال العام الأخير من حياته .

ولا ينبغى أن يهولنا ذلك العدد من المغازى والسرايا والبعوث فإن رسول الله منذ نزل المدينة سنة ٦٢٢ ميلادية رسم خطته على العمل على تحويل المدينة إلى قاعدة الإسلام ، واستخدام هذه القاعدة فى نشر الإسلام فى جزيرة العرب كلها ، وإعدادها لفتح العالم كله بعد ذلك وسار فى عمله بوحى من الله طبعًا . بنظام دقيق وجهد بالغ .

وفى سياق هذا الجهد تحتل غزوة تبوك مكانًا فاصلًا ، فهى الغزوة التى تعين نهاية الجهود لإدخال الجزيرة العربية كلها فى الإسلام وتلى ذلك أعمال مكملة لفتح الجزيرة العربية وإدخالها كلها فى الإسلام وستبدأ مرحلة نشر الإسلام خارج الجزيرة بعد وفاة الرسول ﷺ وانتهاء أبى بكر من حروب الردة .

وغزوة تبوك تبدو لنا وكأن الله سبحانه أراد بها أن تكون إشعارًا بهذا التطور فى مسيرة الدعوة الإسلامية ، وبعض المراجع تذكر أن رسول الله خرج بها فى وقت عسرة وهو يظن أن الروم أعدوا شيئًا ضد الإسلام فى الجزيرة وهذا غير صحيح ، ولا جائز فى السيرة النبوية ، فإن الروم لم يعدوا شيئًا ، وهذا واضح من كلام الواقدى وهو مرجعنا الأكبر فى كل مايتعلق بالمغازى فقد قال هنا ج ٣ (ص ٩٩١ - ٩٩٢) والتفاصيل التى لدينا تدل على ذلك فقد ذكر الواقدى بعد ذلك بقليل (ص ٩٩٢) كلامًا يدل على أن رسول الله ﷺ مع عظيم استعداده لهذه الغزوة إلا أنه كان يعرف أن الروم لم يعدوا فى الحقيقة شيئًا لغزو الجزيرة العربية .

ولهذا فهو لم يخف وجهته ، بل أعلنها صراحة لكى تعرف القبائل العربية أنها تسير إلى غزوة خطيرة فيكون ردها على إنذار النبى ﷺ دليلًا على إيمانها أو ضعف إيمانها ، ويكون ذلك كما يتجلى من سورة براءة مناسبة لدرس من الله سبحانه للمسلمين ، وهذه الدروس قائمة على تفاصيل تجربتهم الكبرى فى غزوة تبوك ، وهذا هو الذى نريد أن ننص عليه فى هذا البحث ونزيده وضوحًا بالتفاصيل . وأعتقد أن هذه واحدة من أظهر المناسبات التى تدل على أن السيرة النبوية فى مجموعها كانت درسًا أو دروسًا عظيمة للمسلمين لا فى العصر النبوى فحسب ، بل فى تاريخهم كله بعد ذلك .

وهذا النظر إلى غزوة تبوك وسورة براءة نظر جديد لم يتنبه له السابقون من المفسرين القدماء الذين تعودوا على أن ينظروا إلى الحوادث على أنها مجرد حوادث لا يرتبط بعضها ببعض بروابط تاريخية ودينية وأخلاقية ، وهذا فى ذاته حال بينهم وبين أن يستخرجوا الدروس العظيمة التى تضمنها سورة "التوبة" ، فهم دائمًا مشغولون بالجزئيات والتفاصيل . وعلى هذا الضوء نرى أن غزوة تبوك ذاتها كانت مناسبة أرادها الله سبحانه ليضع أمام المسلمين قواعد واضحة لعصر جديد سيدخل فيه الإسلام والمسلمون بعدها ، وهذا فى ذاته يعيننا - أولًا - على فهم تفاصيل غزوة تبوك ويمكننا - ثانيًا - من فهم آيات سورة التوبة وما تتضمنه من الحكم والتوجيهات التى تتضمنها تلك السورة .

والآن فلننظر إلى غزوة تبوك بإيجاز :

سبقت غزوة تبوك سبع سرايا كلها في سنة ثمانية هجرية وأوائل سنة تسعة هجرية وكلها كانت بعد إرسال رسول الله ﷺ للمصدقين في المحرم سنة تسع هجرية.

والمصدقون هنا لم يكونوا حكامًا كما يظن بعض المورخين وإنما كانوا مشرفين على إسلام الناس وإخراجهم الصدقات ، ولكن المؤرخين جعلوهم حكامًا أو ولاة سياسيين وما كانوا بذلك ،فعباد بن بشر الأشهلي الذي أرسل إلى قبيلتي سليم ومزينة لم يكن حاكمًا لهم ، بل لم تكن له أية سلطة على القبائل إنما كان ممثلًا للإسلام في تلك القبائل ومعلمًا للناس ومبينًا لأصوله ومشرفًا على إخراج الزكوات

وتفاصيل غزوة تبوك عندنا كاملة بفضل الواقدى الذى أتانا بها في كتاب مغازيه الذى نشر كاملًا منذ سنوات ، وهذه التفاصيل تعطينا – إذا جُمعت ودُرست – تفصيلًا دقيقًا لأحوال المدينة المنورة في السنة التاسعة للهجرة .

والناس عندنا يعتقدون أن المجتمع المدنى – بعد تسع سنوات من قيادة الرسول – قد أصبح مجتمعًا مثاليًا . ولا عيب فيه .

ولكن التفاصيل التى لدينا لا تدل على أن كل أهل المدينة كانوا قد دخلوا الإسلام وآمنوا به ، بل كان هناك الكثيرون من المنافقين والمستهزئين ،وسورة براءة التى نزلت بعد ذلك تؤكد ذلك وترى المسلمين كيف كان تصرف الرسول مع هؤلاء – الأعداء على مستوى رفيع جدًا من الإنسانية وبعد النظر .

والقرآن هنا يؤيد ذلك كله ويشرح للمسلمين طريق التصرف مع كل طراز من أولئك الأعداء .

لأن المنافقين مثلًا لم يكن هناك أمل في إصلاح أحوالهم ، ولكن معاملتهم لا تكون بالعنف والقسوة ولكن بالصبر والحكمة كما نرى في مثال الجد بن قيس الذى كان مرة ظهر نفاقه ، أى إظهاره الإسلام للمسلمين بالكذب والتظاهر بالإيمان بها نفاقه هنا – أى أثناء استعدادا تبدو بصورة واضحة جدًا يحكيها لنا .

وقال رسول الله ﷺ للجد بن قيس : أبا وهب ، هل لك العام تخرج معنا لعلك

تحتقب [1] من بنات الأصفر ؟ فقال الجدّ : أوَ تأذن لى ولا تَفتِنِّى ؟ فواللهِ ، لقدعرف قومى ما أحدٌ أشدّ عُجْبًا بالنساء منى ، وإنى لأخشى إن رأيتُ نساء بنى الأصفر لا أصبر عنهنّ . فأعرض عنه رسول الله ﷺ فقال : قد أذنتُ لك ! فجاءه ابنه عبد الله بن الجَدّ – وكان بَدْريًّا ، وهو أخو مُعاذ بن جَبَل لأمه – فقال لأبيه : لِم تردّ على رسول الله ﷺ مقالته ؟ فوالله ما فى سَلِمَة أكثر مالاً منك ولاتخرج ولاتحمل أحدًا ! قال : يا بُنَىّ ، مالى وللخروج فى الريح والحر والعسرة إلى بنى الأصفر ، والله ما آمن خوفا من بنى الأصفر وإنى فى منزلى – بخُرْبَى ، فأذهب إليهم فأغزوهم ، إنى واللهِ يا بُنَىّ عالمٌ بالدوائر ! فأغلظ له ابنه ،فقال :لا واللهِ ،ولكنه النفاق ! والله ، لينزلنّ على رسول الله ﷺ فيك قرآنٌ يقرأونه . قال : فرفع نَعْلَهُ فضرب بها وجهه ، فانصرف ابنه ولم يُكَلِّمه . وجعل الخبيث يُثبِّط قومه ، وقال لجَبّار بن صَخر ونفرٍ معه من بنى سَلِمَة : يا بنى سَلِمَة ، لا تَنفِروا فى الحرّ . يقول : لا تخرجوا فى الحرّ زهادةً فى الجهاد ، وشكًّا فى الحقّ وإرجافًا برسول الله ﷺ . فأنزل الله عزّ وجلّ فيه : « وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِى الْحَرِّ » إلى قوله : « جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكسِبُونَ » [1] . وفيه نزلت : « وَمِنهُم مَّن يَقُولُ ائذَن لِى وَلَا تَفْتِنِّى .. [2] » الآية ، أى كأنه إنما يخشى الفتنة من نساء بنى الأصفر ، وليس ذلك به ، إنما تعذّر بالباطل ، فما سقط فيه من الفتنة أكثر ، بتخلّفه عن رسول الله ﷺ ورغبته بنفسه عن نفسه . يقول الله عزّ وجلّ : « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » يقول : إنّ جهنّم لَمِن ورائه ، فلمّا نزلت هذه الآية جاء ابنه إلى أبيه فقال : ألم أقل لك إنّه سوف ينزل فيك قرآن يقرأه المسلمون ؟ قال : يقول أبوه : اسكتْ عنى يا لُكَعُ ! واللهِ ، لا أنفعك بنافعة أبدًا ! واللهِ لأنت أشدّ علىّ من محمّد !

وتؤكد ذلك سورة التوبة أو براءة فى الآية ٤٩ وما يليها ، والسورة هنا تفصل أمر هذا المنافق وتوضح دخائل المنافقين بصورة عامة وترى المسلمين أنهم – أى المنافقين – فى الحقيقة أشرار وأشقياء بشرهم ولافائدة فى استعمال القوة معهم ، لأنهم هم أنفسهم يشعرون بحرج مركزهم

فى المجتمع الإسلامى المؤمن ، ولكنهم لايعرفون كيف يتصرفون . بل إن السورة توضح لنا موضوع الصدقات وفيم تصرف فى الآية ٦٠ وهى آية معروفة ومشهورة ، وهى تتضمن كذلك تفاصيل تكشف عن بعض الفضائل الإنسانية التى يتميز بها الإسلام وتـلى ذلك (الآية ٦١) صورة للأذى الذى كان رسول الله ﷺ يتحمله من أولئك المنافقين الذين كانت كراهيتهم للإسلام وخوفهم من المسلمين تؤدى بهم إلى الوقوع فى أخطاء جسيمة ، ولكن الله ينصح المسلمين بالصبر عليهم ، ويكفى أن لهم عند الله عذابًا أليمًا : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

(التوبة ٩ / ٦٠)

«وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

(التوبة ٩ / ٦١)

وتفاصيل غزوة تبوك كما يرويها هنا الواقدى وغيره ترينا كيف أظهر المؤمنون الصادقون – وهم غالبية أهل المدينة – من حقائق إيمانهم واستعدادهم الكامل للبذل فى سبيل الإسلام ما يؤكد لنا بأجلى صورة كيف نجح رسول الله حقًّا فى إنشاء مجتمع من المؤمنين الذين يتصرفون رجالًا ونساءً على أعلى مستوى من الإيمان والاستعداد للبذل فى سبيل الإسلام ، كما نرى فى قول الواقدى فى ص ٩٩١ : (وحض رسول الله ﷺ المسلمين على القتال والجهاد ، ورغّبهم فيه ، وأمرهم بالصَّدَقة ، فحملوا صدقات كثيرة ، فكان أوّل من حمل أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه ، جاء بماله كلِّه أربعةِ آلاف درهم ، فقال له رسول الله ﷺ : هل أبقيتَ شيئًا ؟ قال : الله ورسوله أعلم ! وجاء عمر رضى الله عنه بنصف ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : هل أبقيتَ شيئًا ؟ قال : نعم ، نصفَ ما جئتُ به . وبلغ عمرَ ما جاء به أبو بكر فقال : ما استبقْنا إلى الخير قطّ إلا سبقنى إليه . وحمل العبّاس – ابن عبد المطّلب عليه السلام إلى رسول الله ﷺ مالًا ؛ وحمل طَلحة بن عُبَيد الله

إلى النبيّ ﷺ مالاً؛ وحمل عبد الرحمن ابن عَوف إليه مالاً، مائتى أُوقيّة، وحمل سعد بن عُبادة إليه مالاً، وحمل محمَّد ابن مَسْلَمَة إليه مالاً. وتصدَّق عاصم ابن عَدىّ بتسعين وَسْقًا تمرًا. وجهَّز عُثمان ابن عَفَّان رضى الله عنه ثُلُثَ ذلك الجيش فكان من أكثرهم نَفَقَةً، حتى كفى ذلك الجيش مؤونتهم، حتى إن كان لَيقال: ما بقيت لهم حاجة! حتى كفاهم شُنُق[1] أسقيتهم فيقال: إنَّ رسول الله ﷺ قال يومئذ: ما يضرّ عُثمانَ ما فعل بعد هذا!

ورغِب أهل الغنى فى الخير والمعروف، واحتسبوا فى ذلك الخير، وقوّوا أُناسًا دون هؤلاء مَن هو أضعف منهم، حتى إنَّ الرجل ليأتى بالبعير إلى الرجل والرجلَين فيقول: هذا البعير بينكما تتعاقبانه[2] ويأتى الرجل بالنَّفَقَة فيُعطيها بعض من يخرج، حتى إن كنَّ النساءُ لَيُعِنَّ بكل ماقدرنَ عليه.

والقرآن الكريم يؤيد ذلك فى الآية ٧١ من سورة التوبة حيث يقول سبحانه وتعالى. «وَالْمُؤمِنُونَ وَالْمُؤمِنَاتُ بعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمْ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيم»

ويقول سبحانه بعد ذلك فى الآية التالية (٧٢): «وَعَدَ اللهُ الْمُؤمِنِينَ وَالْمُؤمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوزُ الْعَظِيمُ»

وكلنا نعرف أن القرآن الكريم نزل منجمًا على أساس حوادث من الواقع حتى يكون الواقع مؤيدًا لما يرد فى القرآن.

ويندر فعلاً أن يلتقى الواقع كما كان فى عصر الرسول مع آيات معينة فى القرآن الكريم مما يؤكد ما سبق أن قلناه من أن غزوة تبوك كانت فى الحقيقة مقدمة من الواقع الذى كان المسلمون يرونه ثم جاءت

(١) شنق: جمع شناق، وهو الخيط أو السير الذى تعلق بـه القربة، والخيط الذى يشد به فمها. (النهاية ج ١، ص ٢٣٩).

(٢) فى الأصل: «تتعقبانه».

آيات سورة براءة لترسم حكم الله سبحانه على أهل الإيمان وأهل النفاق ، وتأتى بعد ذلك توجيهات من الله سبحانه لرسول الله تتضمن القواعد التى ينبغى أن يسير عليها الرسول والمؤمنون حيال أولئك الكفار والمنافقين . ومن الواضح أن هذا الطراز من أهل الكفر والنفاق سيوجد فى كافة المجتمعات الإسلامية بعد ذلك وإن هذه الآيات الموجهة هنا إلى رسول الله ﷺ تتضمن أحكامًا أساسية ينبغى أن تطبقها الجماعات الإسلامية مع من فيها من الكفار والمنافقين ، ويُراد بالكفار هنا الوثنيون الذين لا يؤمنون بالله سبحانه ، كذلك المنافقون الذين يتظاهرون بالإسلام وما هم بمؤمنين ، أما غير المسلمين من أهل الكتاب فلهم أحكام أُخرى لها مكانها المعروف فى كتاب الله ونخرج هنا بتوكيدات لموضوع هذا البحث وهو أن سورة براءة أو التوبة ترسم لنا إطارًا للحياة فى المدينة المنورة بعد تسع سنوات من جهاد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا الإطار ينطبق على أحوال المجتمعات الإسلامية فيما بعد . أى أننا هنا أمام تشريعات إسلامية أساسية تصدق فى كل زمان ومكان ، وموضع الأهمية هنا أن لدينا غزوة معروفة التفاصيل وهى غزوة تبوك ، وتفاصيل هذه الغزوة ترسم الظروف التى نزلت فيها أحكام إسلامية فى حالات المنافقين والكافرين والذى نراه هنا مثال نادر من تطابق الواقع مع أحكام القرآن الكريم وهذا طبعًا موجود فى مناسبات أُخرى من واقع الحياة أيام الرسول وأحكام الإسلام بشأنها . ولكننا هنا أمام مثال نادر من التطابق ، فإذا كانت تفاصيل غزوة تبوك هى الواقع فإن سورة التوبة تتضمن الأحكام الإسلامية التى ينبغى أن يطبقها المسلمون فى مثل هذه الحالات ، ويحكى الواقدى هنا — (٣-١٠٤٢) حكاية تدل على سعة صدر رسول الله ﷺ والتزامه بأحكام الإسلام حتى فى أخطر الظروف ذكر الواقدى (ص ١٠٤٢ - ١٠٤٣ - ١٠٤٤) كيف أن نفرًا من المنافقين ائتمروا أن يطرحوه من عقبه فى الطريق ، والنص يثبت فعلًا أنهم حاولوا ذلك ولم يوفقوا فيه ، ونحن نرى هنا أن الرسول عرفهم فردًا فردًا ، وكان يستطيع عقابهم ولكنه رأى أن — يعاملهم بالحسنى أملاً فى إصلاح أحوالهم ، بل إن أُسيد بن حضير طلب إلى رسول

الله ﷺ أن يعاقبهم . فقال رسول الله ﷺ لأسيد : إنى أكره أن يقول الناس إنَّ محمَّدًا لمَّا انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يدَه فى قتل أصحابه ! فقال : يا رسول الله ، فهؤلاء ليسوا بأصحاب ! قال رسول الله ﷺ : أليس يُظهرون شهادة أن لا إلٰهَ إلَّا الله ؟ قال بلى ، ولا شهادةَ لهم ! قال . أليس يُظهرون أنِّى رسول الله ؟ قال : بلى ، ولا شهادةَ لهم ! قال : فقد نُهيتُ عن قتْل أولئك .

وأعتقد أننامهما بحثنا فإننا لن نجد مثالا أبلغ من هذا فى بيان سعة صدر الرسول والتزامه بأصول الاسلام .

وفى سورة براءة عدد كبير من الآيات يدور حول المنافقين وأعمالهم وما ينتظرهم من العقاب ، ومع أن السورة كلها لا تزال تشير إلى المنافقين وتصف أعمالهم ، إلا أنها تقف منهم ومن كل ضعفاء الإيمان موقفاً حاسماً ومفصلاً ابتداءً من الآية السادسة والثلاثين التى تبدأ بقول الله سبحانه :

« إنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فلاَ تَظلِمُوا فِيهِنَّ أنفسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » .

ويبدو أن هذه الآية مدخل للآيات التى تفصل موقف القرآن الكريم من كل هذه الأصناف من ضعاف الإيمان . فقد تحدثت السورة قبل ذلك عن اليهود والنصارى وبسطت بعض نقائصهم وسوءَ مايؤمنون به ومايقولونه ، والقرآن الكريم يصف الأحبار والرهبان ويبين بعض نقائصهم من وجهة نظر الإسلام .

ولكنه بعد ذلك مباشرة وابتداءً من الآية ٣٦ نفسها يبدأ فى تحديد موقف الإسلام من هذه الأصناف من الناس . والكلام كله فى هذه الآية وما بعدها مثقل بالأحكام ، وهى تبدأ بإحلال قتال من يقاتلون المسلمين فى الأشهر الحرم ، ثم يتحدث عن النسىء وأهله (آية ٣٧) وبعد ذلك تبدأ الآيات فى الكلام على الذين يتثاقلون عن الخروج للحرب فى سبيل الله إذا دعوا إلى ذلك .

ويبدو أن المفسرين لم يفسروا تلك

الآيات التفسير الذى يبين ضرورة خروج المسلمين للقتال فى سبيل الله وما أعد الله من العقاب للذين لايخرجون ، ويبدو أنهم مالوا إلى الأخذ بقول الله سبحانه فى الآية ١٢٢ من نفس السورة .

(وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) .

وعلى أية حال فإن تفسير المفسرين لهذه الآية غير حاسم ولا مقنع لأن كل الآيات فيما عداها تنص على ضرورة الجهاد للقادرين عليه صحيا وعقليا وإذا كان هناك من لا يجدون المال الكافى للنفقة على أنفسهم فلابد أن يبذلوا غاية الجهد فى ذلك ولابد كذلك من أن يجتهد القادرون فى إعانة غير القادرين . وهذا فيما أعتقد هو حكم القرآن فى ذلك الموضوع الخطير

والواقدى نفسه يقول : تفسير هذه الآية فى الباب الذى ألحقه منفصلا عن غزوة تبوك وعنوانه : «ذكر مانزل من القرآن فى غزوة تبوك ١٠٦٠ : «ماكان المؤمنون إذا خرج رسول الله ﷺ فى غزوة أن ينفروا كلهم ويتركوا المدينة ولكن ينفر من كل قبيلة طائفة . يقول : بعضهم لينظروا كيف سير رسول الله ﷺ فى المشركين ويعوا ماسمعوا منه «وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » يعنى يخافون الله. وهذا تفسير غير كاف أو مقنع وعلى أى حال فإننا نعتقد أن هذه الآية وما قبلها وما بعدها إن كانت قد فسرت كما ينبغى أن تفسر لكان لذلك أثر بعيد جدًا فى تاريخ الإسلام .

وقد لاحظ ابن كثير فى تفسيره لسورة براءة أن سبب غزوة تبوك يكمن فى قول الله تعالى فى سورة براءة :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (٩ — ٢٨) « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى

يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) (٩ / ٢٩) .

فقد قال بعد كلام كثير : « وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعد ما تمهدت أمور المشركين (يريد فى جزيرة العرب) ودخل الناس فى دين الله أفواجاً فلما استقامت جزيرة العرب أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابيين اليهود والنصارى ، وكان ذلك فى سنة تسع ، ولهذا دعا رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك ، وأظهره لهم ، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم للخروج معه ، واجتمع من المقاتلة نحو ثلاثين ألفا ، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم وكان ذلك فى عام جدب ووقت قيظ وخرج عليه السلام يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك ونزل بها وأقام على مائها قريباً من عشرين يوماً ثم استخار الله فى الرجوع ، فرجع عامه وذلك لضيق الحال وضعف الناس كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى[1] » .

وهذا الكلام وإن لم يكن كامل الصحة فى مجموعة يفتح لنا باباً واسعاً للكلام عن غزوة تبوك وعلاقتها بسورة براءة فإن ابن كثير يقول هنا . إنه بعد إسلام أهل الجزيرة جاءه أمر الله سبحانه بقتال المشركين من أهل الكتاب يهوداً كانوا أو نصارى ، ولم يقتصر الأمر هنا على قتال الروم وحدهم فقد كان من العرب فى الشمال أقوام دخلوا فى النصرانية أو حالفوا الروم فهم معدودون منهم .

قال الواقدى فى الخبر الذى روى عن أن هرقل استعد لقتال المسلمين . (وهو الخبر الذى تبين بعد ذلك أنه غير صحيح : وإن هرقل قد رزق أصحابه لسنة واجلبت معه لخم وجذام وغسان وعاملة وزحفوا وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها وتخلف هرقل بحمص . ولم يكن ذلك ، إنما ذلك شىء قيل لهم فقالوه »[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٧٤ — ٧٥).

(٢) الواقدى ، مغازى ٣ — ٩٩٠ .

وإذن فلم يكن الروم وحدهم هم المقصودون بهذه الغزوة ، وإنما قبائل عربية دخلت المسيحية وساروا مع الروم ، وقد ذكر الواقدى هنا لخماً وجذاماً وعاملة فأما الثلاثة الأخيرة من هذه فكانت فيما عرف بعرب الروم أو نصارى العرب ، وهم قبائل عربية فى مداخل الشام من فروع قضاعة ، وكانت قضاعة قد تفككت وضعف أمرها ، ومن أكبر ما تفرق منها جذام وغسان وعاملة وجهينة وباهلة وذات القين وغيرها . وكانت هذه القبائل تتفرق وتمتد حتى تقترب من المدينة المنورة ، وكانت تتعالى على بقية العرب وتحسب نفسها أرفع منها مكاناً ، وكان رسول الله ﷺ قد أدرك ذلك لأول دخوله المدينة

فاتجهت همته إلى غزو جهينة التى كانت بلادها تمتد إلى شمال الجزيرة فسير إليها صاحبه عبد الله بن جحش فى نفر من أصحابه فأخافها ، وأعلنت رغبتها فى محالفة المسلمين فطلبت أن يعطيها الرسول ميثاقاً بالأمان (أوثق لنا موثقاً) فأعطاهم عبد الله بن جحش الأمان الذى سألوا ، وهذه سرية لم يذكرها أصحاب المغازى وإنما جمعنا تفاصيلها من النصوص التى بين أيدينا ، وفيها يقال إن عبدالله بن جحش كان أول من لقب بأمير المؤمنين ، أى أمير المقاتلين من المسلمين المؤمنين وهذه سرية سابقة على سرية سيف البحر التى تعد أول السرايا فى كتب السيرة .

وبقيت من فروع قضاعة التى حالفت الروم قبائل كثيرة تمتد بلادها من شمالى خيبر إلى مداخل البلقاء وأهمها هى الثلاث المذكورة هنا (جذام وغسان وعاملة) وكان لابد من إدخالها فى الإسلام أو فى عهده قبل غزو الروم وقد ورد هنا أيضاً ذكر لخم ، ولخم فى المأثور الشائع عندنا كانت فى حلف الفرس وطاعتهم ومنهم كانت المناذرة ، ولكننا نرى هنا أن فريقاً من لخم كانوا نصارى ، وكانوا مع الروم وهؤلاء كانوا هم المقصودين فى هذه الغزوة .

وقد صارح الرسول أصحابه وأهل المدينة جميعاً ومن دخل فى عهده من القبائل حول المدينة بوجهته حتى يعرف الناس أنهم يتوجهون إلى بلد بعيد وقتال شديد ، فلا يزعم أحد منهم بعد ذلك أنه لم يعرف إلى أين كانت الغزوة ولكى يختبر المسلمين بذلك ، فمن الناس من تقعد به الإرادة

عن الحرب البعيدة لأن إيمانهم لم يبلغ المبلغ المطلوب فى الجهاد ، وقد حدث من هذا كثير ، وكانت تبوك من هذه الناحية اختبارًا للمسلمين أولا ثم وسيلة لبيان موقف الإسلام من هؤلاء .

وقد أظهر أغلب المسلمين – كما رأينا – إيماناً عظيماً وبذلوا أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله راضين سعداء .

وقد ذكر الواقدى أمثلة كثيرة من دلائل إيمان هؤلاء ، بل إنه يقف طويلاً عند ما أظهرته المؤمنات من كرم وسماحة وقال : « حتى إن النساء كُنَّ يَجُدْن بكل ما قدرن عليه قالت أم سفيان الأسلمية : قد رأيت ثوباً مبسوطاً بين يدى رسول الله ﷺ فى بيت عائشة رضى الله عنها فيه مسكة (سورة من دبْل[1] أوعاج) ومعاضد وخلاخل وأقرطة وخواتيم وخدمات مما يبعث به النساء يُعِنَّ به المسلمين فى جهازهم والناس فى عسرة شديدة »[2] .

ثم يحدثنا الواقدى بعد ذلك عن اهتمام الرسول ﷺ بتنبيه المسلمين إلى أهمية هذه الغزوة وضرورة بذل أكبر الجهد فيها والإسراع فى ذلك ، ثم رحل وضرب معسكره فى ثنية الوداع (شمالى المدينة) ليلحق به من يريد اللحاق ، وقد لحق به الكثيرون جدا حتى بلغت عدة الجيش ثلاثين ألفًا وكانت هذه أكبر قوة عسكرية عرفتها الجزيرة إلى ذلك الحين .

ولكن المنافقين ظلُّوا رغم ذلك كله منافقين ، أى مطهرين للإسلام مخفين العداء له ، وهذا طبيعى فى حالتنا تلك لأن المؤمن الذى فتح الله قلبه للإيمان آمن ، أما الذى امتلأ قلبه بالشكوك فكيف يؤمن ؟

ويبدأ الواقدى هنا فيحدثنا عن الجدّ ابن قيس وكان من كبار المنافقين الذين لم يؤمنوا قط ، وقد زعم هنا أنه لا يستطيع الخروج لحرب الروم خوفًا على نفسه من نسائهم ، وزعم هنا أنه يخشى أنه إذا رآهن ضعف ووقع فى الفتنة ، وواضح أن هذه مجرد تعلة لأن المسألة إذا كانت

---

(١) الدبل جلد السلحفاة البرية أو البحرية تتخذ منه الأسورة والأمشاط .
(٢) الواقدى ، مغازى ٣ – ٩٩١ – ٩٩٢ .

مسألة فتنة نساء الروم فكل العرب كانوا معرضين لهذه الفتنة ، ولكن إيمانهم كان أقوى منها ، فهم لايخشون على أنفسهم منها لأن إيمانهم يغلب على ذلك كله ، وهم ذاهبون لقتال الروم لا للتعرض لنسائهم ، والواقدى يؤكد هنا أن الرجل لم تكن به كل هذه الفتنة بنساء الروم ، وكان أكبر من أنكر موقف الجدّ بن قيس ابنه عبدالله الذى لام أباه لومًا شديدًا وقال له : فو الله ما فى بنى سلمة أكثر منك مالاً ، ولاتخرج ولاتحمل أحدًا .

وهنا اضطر الرجل إلى أن يكشف لابنه عن حقيقة نفسه وما دعاه إلى القعود عن الخروج مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وتعلق هنا أيضًا بحجة الخوف من فتنة نساء الروم ، فرد ابنه عليه قائلاً له : لا والله ولكنه النفاق ، والله لينزلن على رسول الله فيك قرآن يقرأونه ! » فغضب الرجل على ابنه وخلع نعله فضرب بها وجهه ، فانصرف ابنه ولم يكلمه ، وكشف الحر عن وجهه فمضى يثبط من هم على شاكلته عن الخروج للحرب ، وجعل يوجه كلامه إلى بنى سلمة وهم قومه ولولا النفاق لكان رئيسهم وسيدهم وجعل يقول : (لا تخرجُوا فى الْحَرّ) زهادة فى الجهاد وشكًّا فى الحق وإرجافًا برسول الله ﷺ ولم يجعل الرسول به شيئًا ولكن الله سبحانه أنزل فيه وفى أمثاله قوله :

« فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِى الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ * وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ * وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ »[1] .

---

(١) سورة التوبة ٩ — ٨١ — ٨٥ .

يقول الواقدى . «فلمّا نزلت هذه الآية جاء الابن إلى أبيه فقال : أَلَمْ أَقل لك إنه سوف ينزل فيك قرآنٌ يقرؤه — المسلمون ؟ قال : يقول أبوه : اسكت عنى يا لكع ، والله لا أنفعك بنافعة أبدًا ، والله لأنت أشد علىّ من محمد »[(1)] .

وهذا الموقف والكلام من الجد بن قيس يدل على أنه كان فى الحق تعيسًا بموقفه من رسول الله والإسلام ولكن ما عساه يفعل فى نفسه وقد امتلأت غيرة من رسول الله ونفورًا من الإسلام .

ويقول المفسرون فى تفسير الآيات الأخيرة من الآيات التى ذكرناها أنها نزلت فى عبد الله بن أُبىٍّ الذى يوصف دائمًا بأنه كبير المنافقين وكان رسول الله يعلم بأنه منافق وكاذب ، ولكنه كان يتركه على حاله ليتعذب بموقف المسلمين منه واحتقارهم إيّاه وعجزه عن القيام بشىء ، وقد أراد الله سبحانه أن يكون هذا حالهم لكى — يكونوا عبرًا للمسلمين .

وكذلك كان موقف الصبر وطول البال وبُعد النظر من جانب رسول الله دروسًا للمسلمين ، فلو أنه أراد أن يقضى عليهم كلهم فى ساعة لتم له ما أراد ، ولكن الله سبحانه أراد هنا أن يعلم المسلمين ويعرفهم كيف ينبغى أن تكون مواقفهم فى هذا الطراز من أهل النفاق .

ومن المعروف أن الإسلام دين الصبر على الأعداء وطول البال معهم والحكمة فى معاملتهم ، وما كان شىءٌ من هذا ليتحقق لو أن محمدًا صلوات الله وسلامه عليه انتهى من أمرهم فى يوم ، لأن العبرة كانت فى أن يرى المسلمون تعاستهم ، وعذابهم وسوء مركزهم وسط المسلمين .

وكان ابن أُبى لا يستطيع كتمان نفاقه لأنه فى الواقع كان يعانى منه وكان غروره بنفسه يمسكه عن الإيمان برسول الله ﷺ .

قال الواقدى : « فلمّا سار رسول الله ﷺ تخلف ابن أُبىّ عن رسول الله ﷺ فيمن تخلف من المنافقين وقال : يغزو محمد بنى الأصفر ! مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى ما قِبَلَ له به !

(1) الواقدى ، مغازى ٣ — ٩٣ .

يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر اللعب !

ونافق معه من هو على مثيل رأيه ، ثم قال ابن أبى . والله لكأنى أنظر إلى أصحابه غدًا مقرنين فى الحديد ! إرجافًا برسول الرسول ﷺ [1] .

ومع ذلك فقد تركه رسول الله على حاله لتزداد تعاسته وسط المسلمين . وكان الناس يعرفون المنافقين بينهم ، ولكنهم كانوا يتركونهم على مذهب رسول الله ﷺ من هذا الطراز من الناس ، قال الواقدى : « قال : حدثنى يونس بن محمد عن يعقوب بن عمر بن قتادة عن محمود ابن لبيدا أنه قال له :

هل كان الناس يعرفون أهل النفاق منهم ؟ فقال : نعم والله ! إن كان الرجل ليعرفه من أبيه وأخيه وبنى عمه . سمعت جدك قتادة بن النعمان يقول : تبعنا فى دارنا قوم منا منافقون ثم من بعد سمعت زيد بن يقـــول فى بنى النحار : من لابارك الله فيه ! فقال : من يا أبا سعيد ؟ فيقول : أسعد بن ررارة وقيس بن قهد ، ثم يقول ريد : لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ فى عزوة تبوك فلمّا كان من أمر الماء ما كان دعا رسول الله ﷺ فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس .

فقلنا : يا ويحك أبعد هذا شئ ؟

فقال : سحابة حارة ! وهو والله رجل لك به قرابة .

قال محمود : قد عرفته [2] !

وإذن فموقف المسلمين من المنافقين تسامح وعقل مقصودان كى يتعلم المسلمون كيف يصبرون على المنافقين فى وسطهم حتى يبلغ بهم الأمر أن يؤمنوا أو يموتوا على حالهم من النفاق والبعد عن الناس .

وقد حكى الواقدى بعد ذلك حكاية رجل من المنافقين يسمى زيد بن اللصيت وكان من بقايا بنى قينقاع ، وكان رسول الله ﷺ قد فقد ناقته فقال المنافقون

---

(١) الواقدى ، مغازى ، ٣ — ٩٩٥ — ٩٩٦ ؛

(٢) الواقدى ، مغازى ، ٣ — ١٠٠٩ .

وفيهم زيد هذا ما معناه كيف يأتيكم محمد بخبر السماء وتصدقونه ، وقد ضاعت ناقته فهو لا يعرف أين تكون ، وقد دل رسول الله ﷺ على مكانها ، وذهب الناس وعادوا بها ، فقال زيد بن اللصيت لكأنى لم أسلم إلّا اليوم لقد كنت شاكًّا فى محمد وقد أصبحت وأنا فيه ذو بصيرة ، وأشهد أنه رسول الله ، فزعم الناس أنه تاب : وكان خارجة بن زيد بن ثابت ينكر توبته ويقول : لم يزل فسلًا (أى رذلًا) حتى مات »[1] .

وبهذه المناسبة أظهر الرسول ﷺ من العناية بالخيل ما زاد من محبة الناس لها والحرص عليها ، قال : قالوا : وبينا رسول الله ﷺ بتبوك قام إلى فرسه الظرب فعلق عليه شعار (الشعار ما ولى الجسد من الثياب) وجعل يمسح ظهره بردائه . قيل : يا رسول الله ، تمسح ظهره بردائك ! قال : نعم ، وما يدريك لعل جبريل أمرنى بذلك ، مع أنى قد بت الليلة وإن الملائكة تعاتبنى فى حسن الخيل ، ومسحها .

وقال : أخبرنى خليلى جبريل أنه يكتب لى بكل حسنة أوفيتها إياه حسنة ، وأن ربى عزَّ وجلَّ يحط بها عنى سيئة ، وما من المسلمين من يربط فرسًا فى سبيل الله فيوفيه بعليفه يلتمس به قوته إلّا كتب الله له بكل حسبة حسنة وحط عنه بكل حسبة سيئة[2] .

بل إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه وجد فى هذه الغزوة الكبيرة فرصة لتربية الناس وحثهم على الثبات والعقل ، فقد فزع الناس ذات مرة لأمرٍ ما ، ويبدو أن فزعهم زاد على الحد فخرج رسول الله علينا مغضبًا فقال : أيها الناس ، ما هذه الخفة ، ما هذا النزق ألا صنعتم ما صنع هذان الرجلان الصالحان[3] ، يريد عبد الله ابن عمر أو عبد الله بن عمرو بن العاص وسالمًا مولى حذافة .

والآيات تتوالى ، بعد ذلك فى بيان أعمال

(١) الواقدى ، مغازى ٣ – ١٠٠٨ – ١٠١٠ .
(٢) وقد أمر الرسول بالعناية بالخيل فى مناسبات أخرى – الواقدى ٣ – ١٠٢٠ .
(٣) نفس المصدر ، ٣ – ١٠٢١ .

المنافقين وأهل الكفر وما أعد الله لهم من العقاب ، وهنا نلقى آيات كثيرة تنص على وجوب قتال المشركين ، ويلاحظ هنا أننا فى العادة نفرق بين الكافر والمشرك ، فنقول : إن الكافر هو من كفر بالله ، أى أنكره وأنكر الإيمان به إنكاراً تاماً .

أما المشرك فهو الذى يؤمن بالله ولكنه يشرك معه غيره فى الألوهية والعبادة . فأما الكافر وهو فى الغالب وثنى فلابد من قتاله حتى يؤمن أو يموت ، وأما المشرك فإنه يقاتل حتى إذا استسلم للمسلمين خير بين أن يسلم ويصبح واحداً من المؤمنين أو يبقى على دينه ويؤدى الجزية فيصبح من أهل الذمة أى من الداخلين فى طاعة المسلمين وحمايتهم أو يقاتل حتى يموت ، وقد درس الفقهاء والأئمة ذلك كله وانتهوا إلى أن الجهاد خارج بلاد المسلمين واجب على المسلمين جميعاً باستثناء من عجز عن القتال للضعف أو المرض أو الشيخوخة ، وجعلوا لكل حالة حلاً أو حلولاً .

أما داخل بلاد الإسلام فإن الكافر بالله لا يترك على كفره أبداً ، بل لابد أن يؤمن أو حتى الموت أما المشرك فقد ذكرنا حكمه فيما سبق .

* * *

والآيات بعد ذلك تتتبع أعمال المنافقين فى المدينة وتصدر حكم الله على كل طائفة من المنافقين ، مثال ذلك أن نفراً من المنافقين استأذنوا رسول الله فى عدم الخروج للغزو وتعللوا فى ذلك بتعلات شتى ، فقال الله فى الآية ٤٣ وما بعدها :

«عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ * (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ، وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) » .

وللمفسرين كلام جميل فى معانى هذه الآيات ، فقال ابن كثير نقلا عن ابن أبى حاتم عن رواته : هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ! بدأ بالعفو قبل المعاتبة فقال : « عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ » .

وقال ابن كثير أيضاً . ولكن نقلاً عن قتادة بن النعمان : عاتبه كما تسمعون ثم أنزل (الآيات) التى فى سورة النور فرخص له فى أن يأذن لهم إن شاء :

« فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ » (٢٤ - ٦٢) .

ثم يقول الله بعد ذلك : إنهم إذا أرادوا الخروج لاستعدوا له وخرجوا ، ولكن الله يعلم بما فى قلوبهم من الضعف فثبطهم عن الخروج حتى لايكون لهم شرف الخروج ، ثم لكى يحمى المسلمين منهم لأنهم لو خرجوا مع المومنين ماكفوا عن تثبيطهم ومنهم ناس يسمعون لهم .

ثم يقول الله تعالى :

« لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ » (٩ - ٤٨) .

قال ابن كثير :« وذلك أول مقدم رسول الله ﷺ ، رمته العرب عن قوس واحد وحاربته يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله تعالى يوم بدر وأعلى كلمته قال عبدالله ابن أُبى وأصحابه : هذا أمر قد توجه ، أى أن تثبيط أمور المسلمين انتهى أجله وانقضى فدخلوا فى الإسلام ظاهراً ثم أنهم لما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ولهذا قال الله تعالى :

« حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ » .

ثم يدخل القرآن بعد ذلك فى تفاصيل بعض ماحدث قبيل خروج الرسول ﷺ إلى تبوك من تعلق بعض المنافقين بتعلات واهية - بل سخيفة - لتبرير عدم الخروج للجهاد فيقول - مثلاً فى الآية ٤٩ من سورة التوبة :

« وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) والإشارة هنا واضحة ، والمراد بها هنا الجدّ بن قيس أخو بنى سلمة ، وكان واحداً من أكبرهم ، وكان معروفاً أنه فى جماة المنافقين ، وقد دعاه رسول الله ﷺ إلى الخروج للغزو فى أسلوب لطيف مجاملة له ، قال ابن كثير

فقال : يارسول الله ، أو تأذن لى ولاتفتنى فوالله لقد عرف قومى مارجل أشد عجباً بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عليهن وأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : قد أذنت لك وهذا كان كلام الجدّ بن قيس ...أى أنه كان يخشى من نساء بنى الأصفر ، وليس ذلك به ، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن الجهاد أعظم (تفسير الطبرى)، الأثر ٥٦٧٨٨ (١٤ / ٣٨٣) ، وينظر سيرة ابن هشام (٢ / ٥١٦) . وواضح أن هذا الرجل كان فى الغاية من التفاهة عندما قال ذلك ، فإن فى كل رجل صحيح ميلاً إلى النساء ، ولكن الإنسان يضغط على نفسه ويوجهها ولا يخشى أن يخرج للقتال ، فيتعرض للفتنة من نساء الأعداء ، ولهذا فقد كان إنكار الله سبحانه لموقفه هذا شديداً ، وكان رسول الله قد صرف النظر عنه لأنه كان يعرف أنه منافق ، فلما نزل حكم الله فيه افتضح أمره بين المسلمين وساء مركزه ولكنه ظل منافقاً .

وفى آيات أخرى بعد ذلك نجد الإشارة إلى المخلفين ، وهم نفر من القادرين على القتال تخلفوا عن رسول الله كسلا وميلاً إلى الدعة ومنهم مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية ، وهؤلاء اختلف فيهم حكم الإسلام بحسب موقفهم بعد تبوك .

قال ابن كثير : « فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسوارى كما فعل ابن لبابة وأصحابه وطائفة لم يفعلوا ذلك ، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون ، فنزلت توبة هؤلاء قبل أولئك ، وأرجِئ هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية ، وهى قوله تعالى :

« لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ... » (الآية ١١٧) « وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ... » (الآية ١١٨) .

كما سيأتى بيانه فى حديث كعب بن مالك وقوله :

« فَإِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ »

أى . هم تحت عفو الله ، إن شاء فعل بهم

هذا ، وإن شاء فعل بهم ذاك ، ولكن رحمته تغلب غضبه ، « وهُوَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى عليم بمن يستحق العقوبة ومن يستحق العفو ، حكيم فى أقواله وأفعاله ، لا إله إلا هو ولا رب سواه (١) .

وهذا الكشف عن أعمال المسلمين وعرضها فى الآيات هو الذى جعل المسلمين المعاصرين لرسول الله ﷺ يخافون هذه السورة خوفاً شديدًا ، فقد كانت آياتها تتنزل على رسول الله شيئاً فشيئاً ، وكل منهم يخاف أن يكون قد فعل شيئاً لا يرضى عنه الله سبحانه دون أن يدرى ، ولهذا وصفت سورة التوبة بأنها الكاشفة والفاضحة .

وهذا التطابق بين ماورد فى القرآن وماكانت عليه أحوال المسلمين فى العام التاسع من جهاد الرسول فى المدينة هو الذى جعلنا نقول : إن السورة تعطينا إطارًا لأحوال المسلمين فى المدينة فى ذلك الوقت ، فما دامت الإشارة قد وردت فى القرآن إلى عمل من أعمال المؤمنين أو المنافقين كان ذلك دليلاً لا يقبل الشك على حقيقة ذلك .

وقد تنبه المفسرون الماضون إلى ذلك ، ولكن أذهانهم اتجهت فى الغالب إلى الأحكام الفقهية لأنهم فقهاء ، وما يهمهم فى المكانة الأولى هى الأحكام ، ونحن – طبعاً – تهمنا الأحكام ، ولكن الوقائع التاريخية تهمنا أيضاً .

وهذه حقيقة جديرة بالذكر ، فغالبية المسلمين يجمع على أن المجتمع الإسلامى فى المدينة كان صافياً خالصاً لانفاق فيه ولا غش ، والحقيقة أنه كان فيه غش ونفاق كثيران ، وتلك هى العبرة فى ذكر القرآن لذلك كله فالقرآن لم ينزل للصحابة ومعاصرى رسول الله ﷺ وحدهم ، وإنما نزل لهم وللأجيال التالية لهم ، وهذا هو مجال العبرة والحكمة الإلهية .

وفيما بين ذلك أنزل الله سبحانه آيات كثيرة تحمل قواعد إسلامية ثابتة وعامة وصادقة على اختلاف العصور والظروف ، مثل قوله تعالى فى الآية الستين من السورة .

«إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى

---

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ٤ / ١٨٤ .

الرقاب والغارمين وفى سبيل الله) فهنا نجد قواعد عامة عادلة لابد أن يطبقها المسلمون فى التصرف فى أموال الصدقات ، فلابد أن تقسم على الطوائف الثمانية الذين وردوا فى هذه الآية ، وحيث إن الصدقات فريضة على كل المسلمين فهذه طريقة التصرف فيها ، وليس لمسلم أن يتصرف فيها كما يشاء . وللمسلمين كلام كثير فى ذلك كما أن كثيرًا من حكام المسلمين أساءوا التصرف فى الصدقات فاعتبروها ضمن ماظنوا أنه حق لهم من الضرائب على الناس.

وقد أورد الصحابى عبد الرحمن ابن زياد بن أنعم مع سنده قال فيه : فأتى رجل رسول الله فقال أعطنى من الصدقات فقال له : إن الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى حكم فيها هو ، فجزأها ثمانية أصناف فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك(1) » .

وهذه الآية معروفة لنا جميعاً . وهى متداولة فى كتب كثيرة لأهميتها . والآيات التى تتضمن أحكاماً عامة تصدق فى كل زمان كثيرة جدًا فى هذه السورة التى نزلت فى مناسبة معروفة هى غزوة تبوك ولكنها تصدق على المسلمين فى كل زمان ومكان ومن ذلك قوله تعالى فى الآيتين ٦٥ و ٦٦ من نفس السورة :

« وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ،قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِين » .

وقد روى ابن كثير خبرًا غير محدد ولكنه يؤكد حقيقة ما وقع من المنافقين قال بعد السند : قالوا : قال رجل من المنافقين : ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً وأكذبنا ألسنة وأجبننا عند اللقاء ، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فجاء إلى رسول الله ، وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، فقال : « أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ » إلى قوله « مُجْرِمِينَ » ، وإن رجليه لتنسفان الحجارة ، أى أنه فى تتبعه لرسول الله يشق الأرض برجليه

(١) أحالنا ابن كثير هنا إلى سنن أبي داوود «كتاب الزكاة» باب من يعطى الصدقة وحد الغنى الحديث ١٦٣٠ ، ٢ ــ ٢١٧ . وقد قال ابن كثير إن الحديث ضعيف ، وهو ضعيف فعلا (انظر تفسير ابن كثير ٤ ، ٢٠٥) .

كأنهما تقتلعان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ (والنِسْعة بكسر وسكون سَيْرٌ مضفور يجعل زماماً للبعير)[1] .

والآية تدل على وجود هذه الطائفة من المسلمين الذين لم يستقر فى نفوسهم جلال الإيمان ، فهم يستهزئون فى أحاديثهم بين بعضهم وبعض بما لا يجوز أن يستهزأ به وإن كنا نلاحظ أن الحادثة التى رواها ليست بحادثة وإنما هى مجرد تصوير لما يمكن أن يكون قد وقع بين رسول الله ﷺ وواحد من أولئك المستهزئين الذين أرادوا تخفيف جريمتهم بالقول بأنهم فى أحاديثهم التى وقع فيها الاستهزاء لم يكونوا جادين فى الكلام ، وإنما هم كانوا يخوضون فى الحديث لمجرد الكلام . ولكن موقف الرسول ﷺ منه كان موقفاً بالغـاً فى الحزم والغضب ولا شك أن هذا درس لا ينسى لكل المسلمين بعد ذلك ، وهذا هو المقصود من الآية القرآنية وموقف رسول الله ﷺ من أولئك المنحرفين والآية ٦٧ من سورة التوبة تجعل المنافقين فاسقين كفاراً والآية التى تليها تبين عقابهم :

« الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [٦٧] وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ » [٦٨]) .

والآيات التالية تعطينا أمثلة من المنافقين والمنافقات قبل الإسلام ، يجعل مسئولية النفاق على المنافق نفسه : (فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (الآية ٧٠) .

ونعتقد أن هذه الآيات كانت نهاية النفاق والمنافقين فى المجتمع الإسلامى ، حقاً لقد بقى منهم منافقون قدماء ولكن هؤلاء كانوا قليلين ، ولكننا فيما عدا هؤلاء لم نعد نسمع عن منافقين فى العصر النبوى الذى يمتد إلى نهاية العصر الراشدى وبعد آيات يبين الله فيها فضل المؤمنين

---

(١) ابن كثير ٤ / ١١١

الصادقين وما أعد الله لهم من حسن الجزاء نجد الآية الرابعة والسبعين تفتح لمن يريد إصلاح نفسه والانضمام إلى المسلمين الصادقين طريقاً للتوبة :

« يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَاقَالُوا ، وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ ينَالُوا وَمَانَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِنَّ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَاباً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَالَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ » .

ونعتقد أن هـذه الآية التى فتحت أبواب التوبة والرحمـة أمام المنافقين هى التى أوقفت النفاق فى المدينـة ، والمجتمع الإسـلامى كله بعد ذلك ، ونلاحظ أن الآية تنص على أن الله أغنى أولئك الناس وبقية أهل المدينة من فضله ، وتلك حقيقة تاريخية لم يتنبه إليها أحد ممن أرّخوا للسيرة أو لعصر الرسول ، فإن هجرة الرسول إلى المدينة وإنشاءه الجماعة الإسلامية فتحت أمام أهل المدينة أبواباً واسعة من الغنى ، فقد هدأت الأحوال فيها وكثر توافد الناس عليها ، فاتسعت مساحتها وزادت أبواب الرزق أمام أهلها ، فاغتنوا وأصبحوا أغنى من أهل مكة .

حقاً لقد بقى فى مكة نفر قليل من الأغنياء ولكن البلد كله افتقر بعد أن توقفت تجارته ولم يعد الناس يزورونه للحج كما كان الحال قبل .

ولا ننسى هنا أن تحسن الأحوال الاقتصادية فى المدينة يرجع إلى الاسلام ومبادئه وإلى الطريقة المثلى التى سار عليها رسول الله فى قيادة أهل المدينة ، فقد كثر السكان وكان لابد من أعمال صناعية وتجارية للقيام بشئون هؤلاء السكان الجدد ، ثم إن الإسلام ينص على أن يشترك المسلمون جميعاً فى الغزو أو الإنفاق على الغزوات والسرايا والبعوث .

ومن هنا نفهم كيف أن تحسن الأحوال فى المدينة لم يؤدِّ إلى ظهور طبقة من الأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال كما كان الحال فى مكة ، إنما هى كانت حالة رخاء عام ونشاط فى العمل والإنتاج مع النص على أن الأغنياء ينبغى أن ينفقوا أموالهم على مصالح الجماعة .

وقد أخطأ نفر من المفسرين فقالوا هنا إن الإسلام كان يأبى على الإنسان أن يعتنى ولوقام بكل مسؤلياته حيال الجماعة وهذا ليس بصحيح ، لأن الإسلام لايتدخل فى أموال الناس التى يكسبونها حلالاً ويؤدون عنها ما أمرهم الله أن يؤدوا .

وفى الآية ٧٥ – ٧٧ يقول الله سبحانه وتعالى : « وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فلَمَّا آتَاهُمْ من فَضْلِهِ بخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُمْ مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِى قُلُوبِهِمْ إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ » .

وهذه صياغة قرآنية كريمة لقصة حقيقية وقعت لرجل يسمى ثعلبة سأل رسول الله أن يدعو له الله أن يرزقه مالاً فنبهه رسول الله إلى مسئولية صاحب المال فى ماله ، بل سأله إن كان لايعجبه أن يكون كرسول الله ﷺ فإن الرسول كان يستطيع أن يدعو الله أن يرزقه فيرزقه كيف شاء ، ولكنه فضل أن يظل على ما هو عليه مكتفياً بالقليل الذى يغنيه عن الحاجة ولكن الرجل أصر ، فدعا له الرسول وتركه ، فاشترى الرجل غنماً ونماها حتى كثرت حتى ترك المدينة إلى موضع قريب منها ليرعى غنمه ويستكثر منها واعتنى فعلاً حتى صرفه المال عن الصلاة ، وبلغ الرسول خبره وكان يتوقع له ذلك ..

فقال ياويح ثعلبة ! ياويح ثعلبة ! وعندما مر رجال الرسول بثعلبة وطلبوا صدقة ماله قال : ماهذه إلا ضريبة ! ماهى إلا أخت الجزية ، وقال لهما انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلىّ ، وكان الله قد أنزل على رسوله قوله تعالى :

« وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٩ – ٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُمْ مُّعْرِضُونَ (٩–٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِى قُلُوبِهِم إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٩–٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٩ – ٧٨) » .

فكانت هذه الآيات قاضية على ثعلبة وأمثاله ، فقد حاول الرجل أن يتصالح

مع الرسول ويقدم له من أمواله فرفض الرسول ﷺ ورفضه كذلك أبو بكر وعمر وعثمان ، وانتهت حياته ذليلاً تعيساً فى خلافة عثمان .

وكانت هذه الآيات كافية للقضاء على مثل هذا الرجل وأمثاله فلم نعد نسمع بأحد فى العصر النبوى فعل مثل ذلك .

وشبيه بذلك وأولئك الذين نزل فيهم قوله تعالى :

« الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ، سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩ - ٧٩) .

فهنا أيضاً نجد الإشارة إلى ناس حقيقيين من أولئك المنافقين ممن جعلوا همهم السخرية من المؤمنين الذين كانوا يجودون بما يستطيعون من أموالهم فى سبيل الإسلام .

فقد جاء رجل بسيط أسود اللون قصير القامة فتقدم لرسول الله بفاقة ويقول راوى الخبر إنه لم يَرَ فى البقيع أحسن منها فقال المنافقون . « هذا يتصدق بهذه ؟ فوالله لهى خير منه !

فسمعها رسول الله ﷺ فقال : (كذبت بل هو خير منك ومنها - ثلاث مرات) .

ثم قال : ويل لأصحاب المئين من الإبل - ثلاثاً - فقالوا إلا من يا رسول الله ؟

قال : [إلا من قال][1] بالمال هكذا وهكذا ، وجمع بين كفيه عن شماله وعن يمينه ثم قال : قد أفلح المزهد المجهد ، ثلاثاً . المزهد فى العيش ، المجهد فى العبادة »[2] .

وقد حدث بعد ذلك أن عبد الرحمن بن عوف قدم نصف ماله كله - وقدر النصف أربعة آلاف على سبيل الصدقة ، وقدم رجل آخر يسمى أبا عقيل صاعاً من تمر ، وكان هذا نصف ما عنده ، فقالوا إن عبد الرحمن بن عوف أعطى ما أعطى

---

(١) هذا الكلام ينقل عن تفسير ابن كثير ، والقوسان من عنده ، المراد بالأمن قال : إلا من فعل .
(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ١٢٦ .

نفاقاً ، وأما عن صاحب الصاع فقد تضاحكوا به وقالوا : إن الله لغنى عن صاع أبى عقيل ! فقبل رسول الله ﷺ من كل منهم ما تقدم به وقال لكل منهم : بارك الله لك فيما أعطيت ، وبارك الله لك فيما أمسكت .

وقال ابن كثير بعد ذلك : وقوله : فيسخرون منهم ، وهذا على باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمسلمين لأن الجزاء من جنس العمل ، فعاملهم معاملة من سخر بهم انتصارًا للمؤمنين فى الدنيا ، وأعد للمنافقين فى الآخرة عذاباً أليماً[1] وقال الله سبحانه بعد ذلك مخاطباً رسوله الكريم :

« اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ . واللهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ » (٩ــ٨٠)

ونحن نرى هنا أن الله سبحانه وتعالى ترك هؤلاء المنافقين يتصرفون على هواهم ، وكان قادرًا على أن يسكتهم إلى الأبد ، ولكن الله أراد أن تكون فى هذا دروس للمؤمنين ، وأن نرى بأعيننا الحرية التى كانت للناس فى عهد الرسول ، وهذه الحرية هى التى قضت على أولئك الناس لأنهم تصرفوا على مارأوا دون أن يتدخل الرسول فى حياتهم ، ثم جاء الله بالحل الأمثل والدرس الأعظم الذى نفع المسلمين فى العصر النبوى ، فقد كانت آيات الله سبحانه خير علاج ، وبالفعل فإن هذه الطرز من المنافقين اختفت من المجتمع الإسلامى اختفاء تاماً ، وما كانت لتختفى على هذا النحو إذا كان الرسول قد أخذهم بالعنف.

ونعتقد أن الحرية هنا كانت جزءًا أساسياً فى العلاج ، فقد رأى الناس كلهم هؤلاء الناس وما كان من تصرفهم ، ثم جاء حكم الله خير علاج لأحوالهم .

وتأتى بعد ذلك آيات تكرر الغضب على الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله كسلاً وكراهة فى الحرب ، ولم يكتفوا بذلك بل مضوا فى حث الناس على القعود وعدم الخروج فى الحر :

---

(١) ابن كثير ٤ / ١٢٦ .

« فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا : لا تَنفِرُوا فِى الْحَرِّ . قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٩ ــ ٨١) . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » (٩ ــ ٨٢) .

ثم تلى ذلك آيات تذكر عقابات أخرى لهؤلاء :

« فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٩ ــ٨٣) وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٩ــ ٨٤) وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِى الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٣ ــ ٨٥) .

وهكذا نرى أن الله سبحانه جعل عقاب أولئك المخالفين والقاعدين بيده وحده ، وهو الذى عاقبهم وحكم عليهم فكان ذلك أبلغ حكم ، فاختفوا بحكم الله لا بحكم أحد ، لأن الناس قد يخطىء بعضهم فى حق بعض ، وقد يسىء بعضهم الحكم على بعض فتكون العقوبة غير عادلة ، ولكن الله سبحانه يعرف الناس أجمعين ظاهراً وباطناً ، ولهذا كان عرضه لحالاتهم صادقاً وحكمه عليهم حاسماً .

وهذا هو الذى نراه فى المجتمع الإسلامى فى العصر النبوى ، وهو يصدق أيضاً على كل الجماعات الإسلامية بعد ذلك ، وهذا هو موقف العبرة الكبرى فى الإسلام فإن الله سبحانه هو الذى يهدى الناس ، والناس لا يستطيعون هداية بعضهم بعضاً ، وإنما يقف جهدهم عند بيان الدين وشرحه للكافرين أو المقصرين ، والبقية ، وهى هداية الناس أو عقابهم إذا كانوا لا يفتحون قلوبهم للحق – بيد الله سبحانه وتعالى .

وحتى لو جاءوا بعد ذلك يعرضون على الرسول أن يخرجوا معه فإن الله سبحانه لا يرضى عن خروجهم ويقول لهم : لقد قعدتم عن الخروج أول مرة كسلاً وتهاوناً بأمر

الله (فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ) . بل إن الله يأمر رسوله الكريم بألا يصلى على أحد مات منهم ولا يقوم على قبره لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون .

وكان رسول الله ﷺ يرى قبل نزول هذه الآيات أن الله خيره بين أن يصلى على هؤلاء المنافقين أولا يصلى، فاختار الصلاة على ابن أُبى بن أبى سلول لأن ابنه كان مؤمناً ، وقد سأل رسول الله أن يصلى على أبيه عندما مات وصلى عليه فعلا وقام على دفنه وقد أنكر ذلك عمر وأنكره جبريل كذلك فجاءت هذه الآيات حاسمة هنا حتى لا يصلى المؤمنون على المنافقين والكاذبين بعد ذلك أبداً ، بل إن الله سبحانه حذر رسوله من العطف على أحد من المنافقين إكراماً لأبنائهم المؤمنين .

« وَلاتُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِى الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) .

وبعد ذلك وزيادة فى التوضيح من الله سبحانه وتعالى فى هذه المواقف جاء قول الله سبحانه :

« لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (٩ ـ ٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ) (٩ـ٩٢) .

وهذا حدث فعلاً ، إذ أن نفراً من المؤمنين الصادقين لم يجدوا سلاحاً ولا ما يركبونه للخروج فى تلك الغزوة البعيدة فاعتذر الرسول إليهم بأنه لا يملك ما يحملهم عليه فتولوا وهم يبكون .

وقد تولى بعض المؤمنين إعانة بعضهم فأعطوا رجلين منهم جملا ليركبا متعاقبين ولكن بقى الكثيرون عاجزين عن الخروج ، وهؤلاء يعفيهم الله سبحانه من العقاب وهذا يصدق أكثر فى أيامنا هذه لأن الحرب أصبحت أكثر تعقيداً وصعوبة ، وإذا كان كافياً فى العصر النبوى أن يساعد مؤمن إخوانه من المسلمين الصادقين فيعطى اثنين منهم جملاً ليخرجا عليه ، فإن الحرب فى أيامنا تحتاج إلى أكثر من هذه المعونة

البسيطة وتصبح الدولة هى المسئولة عن خروج الناس إلى الحرب وبدلاً من أن يذهب الناس إلى الدولة يطلبون المعاونة نجد أن الدولة فى أيامنا هذه هى التى تقوم بتنظيم الخدمة العسكرية ، فهى تجند الناس فى سن معينة وتعلمهم الحرب وتمرنهم على استخدام السلاح وتعدهم للحرب دفاعاً عن الوطن حتى إذا جاء وقت الحرب كانوا قادرين على الخروج والثبات والحرب واستعمال أجهزة العصر وأدواته .

وأصبح الواجب على الناس فى أيامنا الصدق مع الدولة والإخلاص فى التدريب واستعمال الأجهزة والسلاح ، وأصبح هذا كله فاصلاً فى أيامنا حتى إن رجالاً فى الغرب فاتتهم سن الحرب والقدرة عليها فلجأوا إلى الكذب فى تعيين سنهم لكى يخرجوا مع المقاتلين ولا يبقوا مع القاعدين فاجتهد رجال الدولة فى إفهامهم أنهم يعرفون سنهم ويعرفون كذلك أن هذه السن لا تساعدهم على الثبات والقتال فى الميادين .

ومن هنا نرى أن ما يزعمه البعض من أنهم مسئولون عن الحرب والدفاع دون إذن الدولة وتنظيمها وتسليحها خطأ ولا يجوز ، فإن الناس أصبحوا فى أيامنا ملايين كثيرة ، ومن الممكن أن يحاول البعض خداع الدولة والزعم بأنهم مسؤلون عن القتال مباشرة . وهذا خطأ وخطر ، وحتى إن زعم بعضهم أن الدولة أهملته فإنه لا يجوز له أن يعد نفسه للحرب ويقوم بها بنفسه أو مع جماعة من أمثاله فذلك خطأ .

ومن الواجب أن يتقدم كل من يريد الدفاع عن الوطن والدين إلى الدولة وهى التى تتولى كل مسؤليات الحرب والجهاد وإعداد الجيوش للقيام بالحروب على مستوى العصر .

وبعد آيات قليلة يأتى الكلام على الأعراب ، والمراد بهم هنا – وفى العصور التالية – الجهال الذين يعيشون فى جماعات غير منظمة بعيداً عن الجماعات المستقرة المتحضرة ، فهؤلاء تشغلهم الفوضى التى يعيشون فيها عن الدين ومطالبه ، ثم إن الجهل والفوضى تجعلهم بعيدين بالقلب والإحساس عن طلب الهدى ، وقبل أن نورد كلام الفقهاء فى هذه المعانى نورد

الآيات القرآنية الكريمة : قال سبحانه .

« وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩-٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩-٩٩)

ونلاحظ هنا وكذلك لاحظ المفسرون أن الله سبحانه قسم الأعراب هنا إلى قسمين :

قسم منافق كافر وقسم مؤمن .

قال ابن كثير : أخبر تعالى أن فى الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين ، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر ، أى أحرى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، كما قال الأعمش عن إبراهيم قال : جلس أعرابى إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند .

فقال الأعرابى : والله إن حديثك ليعجبنى ، وإن يدك لتريبنى .

فقال زيد : ما يريبك من يدى ؟ إنها الشمال .

فقال الأعرابى ، والله ما أدرى اليمين يقطعون أم الشمال ؟

قال زيد بن صوحان : صدق الله :

« الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقاً ، وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ »(١)

ونلاحظ هنا أن ذلك الأعرابى لم يكن جاهلاً فحسب ، بل كان كذلك شريراً سيء القلب ، فهو يسخر من الشيخ لمجرد أنه شيخ عالم

وروى ابن كثير هنا حديثاً عن ابن عباس يقول فيه بعد السند :

(من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل « عن أوقات الصلاة » ، ومن أتى السلطان افتتن)(٢) .

وقد علق الترمذى على ذلك الحديث

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٧٠٩٣ (١٤ - ٤٢٩) .
(٢) مسند الإمام أحمد ١ - ٣٥٧ ، ابن كثير ٤ - ١٤٠ .

بقوله : حديث حسن غريب لا نعرفه إلّا من حديث الثورى .

ويعلق ابن كثير على ذلك بقوله : ولمّا كانت الغلظة والجفاء فى أهل البوادى لم يبعث الله منهم رسولًا ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِى إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ » .

(سورة يوسف ، الآية ١٠٩)

أى أن الله سبحانه يختار رسله من أهل القرى والجماعات المستقرة المتحفزة .

قال ابن كثير فى تفسير الآية : (وأخبر تعالى أن منهم « مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ » ، أى فى سبيل الله مغرمًا أى غرامة وخسارة . « وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ » ، أى ينتظر بكم الحوادث والآفات . ثم يقول بعد ذلك : « وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ » .

هذا هو القسم الممدوح من الأعراب ، وهم الذين يتخذون ماينفقون فى سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم . « أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ » أى إن ذلك حاصل لهم : « سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِى رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » .

وقد فات ابن كثير أهم شىء هنا ، وهو ما كان ينبغى له أن يفوته وهو عدل الله سبحانه وتعالى فى الحكم على الناس . فما كان ليصدر حكمًا عاما على كل الأعمال بأنهم : « أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » . فإن فى الأعراب مؤمنين أتقياء يتخذون ماينفقون فى سبيل الله قربات يتقربون بها إلى الله ويبغون بذلك أن يدعو الرسول لهم

وهذه حقيقة عن الأحوال الاجتماعية فى جزيرة العرب فى العصر النبوى فقد كان الأعراب كثيرين ، ومنهم من كانوا — مؤمنين ذوى قلوب رقيقة وهؤلاء فهموا الإسلام حق الفهم ولكن غالبيتهم كانوا من أشد الناس كفرًا ونفاقًا ، لأن هذه هى طبيعة البداوة وجفاءها وخشونتها ،

ولن يصلح المجتمع العربى فى جزيرة العرب إلّا إذا قضى على البداوة واستقر سكانها أجمعين وساروا فى طريق الحضارة ، وهذا هو ما أدركه الملك عبد العزيز آل سعود عندما تولى أمر جزيرة العرب وقرر أن يخرجها من الضياع والتفرق الذى كانت تعانيه ، وينشئ من أولئك العرب ، بدوًا وحضرًا مجتمعًا واحدًا متحضرًا متساندًا . أى أمة عربية ، وقد وفق فى ذلك ، لأنه كان يسير فى تفكيره السياسى وعمله فى تطبيق ذلك التفكير على القرآن الكريم والسنة الشريفة .

ومن الحقائق الاجتماعية والفكرية التى تتضمنها الآيات بعد ذلك مايقوله ابن كثير : وقال عبد الرازق : أخبرنا معمر عن قتادة فى هذه الآية :

« وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ » (٩ ـ ١٠١)

أنه رأى رسول الله ﷺ قال : ما بال أناس يتكلفون علم الناس : فلان فى الجنة وفلان فى النار ، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال . لا أدرى ، لعمرى أنت بنفسك أعلم منك بأحوال الناس ، وقد تكلفت أى (كلفت نفسك) شيئًا ما تكلفه الأنبياء قبلك . قال نبى الله نوح : « وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ، وقال نبى الله شعيب : « بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ » سورة هود (١ ـ ٨٦)

والمراد ببقية الله خير لكم : أى ما أبقاه الله لكم من الحلال .

(انظر : المصحف المفسر لمحمد فريد وجدى من ٢٩٧ ـ تفسير سورة هود) .

وقد فات ابن كثير أن يلاحظ أن هذه الآية تؤكد ما سبق أن ذكرناه من عدل الله سبحانه ودقة القرآن الكريم فمادام الله قد ذكر فى آية سابقة أن من الأعراب وأهل القرى مؤمنين فكان لابد أن يؤكد هنا أن فى الحين منافقين وذلك حتى لا يدرك أهل المدينة غرور فيحسبوا أنهم كلهم أفضل فى إيمانهم من الأعراب ، بل أن فيهم أيضًا منافقين مردوا على النفاق لا يعرفون أنفسهم ولكن الله يعرفهم وسيعذبون مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم .

ثم يورد ابن كثير بعد ذلك حديثًا ينسبه إلى السدى رواية عن ابن عباس يقول : قام رسول الله ﷺ خطيبًا يوم الجمعة فقال : اخرج يا فلان فإنك منافق واخرج يا فلان فإنك منافق فأخرج من المسجد ناسًا منهم ، فضحهم فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم حياء أنه لم يشهد الجمعة ، وظن أن الناس قد انصرفوا ، واختبأوا هم من عمر ، ظنوا أنه قد علم بأمرهم ، فجاء عمر فدخل المسجد فإذا الناس لم يصلوا ، فقال له رجل من المسلمين : أبشر يا عمر ، قد فضح الله المنافقين اليوم !

قال ابن عباس : فهذا العذاب الأول عن إخراجهم من المسجد ، والعذاب الثانى عذاب القبر (١) .

وهذا من الأحاديث التى لا يدرى الإنسان إن كان يقبلها أو لا يقبلها . من الناحية التاريخية أقصد ، لأن هذا المذهب فى معاملة الناس – والمنافقين خاصة – لا يتفق مع ما نعرف من بعد نظر الرسول فى معاملتهم فقد كان ميالًا إلى أن يجعلهم يشعرون بكفرهم وإنكار المسلمين لهم .

والقرآن الكريم كان يؤيد اتجاهه هذا حتى يجئ اليوم الذى يختفون فيه ، ويكون المجتمع فى هذه الحالة هو الذى حكم عليهم بالموت ، وهذا هو الذى حدث فعلًا .

والآية التالية تعطينا صورة لطراز آخر من أهل المدينة وهو طراز المؤمنين الذين لا يساور قلوبهم شك ، ولكنهم كسالى وميالون إلى الراحة والقعود عن القيام بما أمر الله سبحانه ، وهؤلاء يعترفون فى العادة بذنوبهم ويرجون أن يغفر الله لهم ، وهم يقومون فى أثناء ذلك بأعمال صالحة ، خلطوا كسلهم وإهمالهم باعترافهم بينهم وبين الله : « خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا » فهؤلاء كما يقول ابن كثير تحت عفو الله وغفرانه .

وهذه وإن كانت نزلت فى أناس معينين إلّا أنها عامة فى كل المذنبين الخاطئين المخلصين المتلوثين ، وقد قال مجاهد : إنها

(١) ابن كثير (٤ – ١٠٤) .

نزلت فى أبى لبابة لَمَّا قال لبنى قريظة : (إنه الذبح) وأشار بيده إلى حلقه ، ولم يكن رسول الله ﷺ قد قال له شيئًا من هذا ، ولا أذن له فيه ، فتنبه إلى خطئه ، وذهب فربط نفسه إلى سارية فى المسجد وأصر على أن يظل مربوطًا حتى يغفر الله له إذا شاء ، وعندما غفر الله له ونزلت آية بذلك وأذن الله له فى أن ينطلق أو تطلقه ابنته أبى إلَّا أن يكون رسول الله بنفسه ، وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك .

ويهمنا هنا أن نقول : إن هذا الطراز من المؤمنين الكسالى الميالين للإهمال كثيرون جدًّا فى المجتمع الإسلامى ، بل هم غالبية فى أيامنا التى تجد الناس فيها كسالى ، مهملين رغم إيمانهم ، وهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه كما يقول ابن كثير .

ثم تجىءُ بعد ذلك الآية ١٠٣ وهى الآية التى تهم أى دارس للإسلام اهتمامًا خاصًّا ، فهى تعين دور الزكاة فى أمواله وتبين كيف أنها رئيسية لكل مؤمن ، فإننا نعلم هنا أن الزكاة لا تعين المسلم الفقير المسكين العاجز فحسب ، بل إن فائدتها لمن يؤديها أعظم ، فهى تطهرهم وتطهر أموالهم وتزكيهم ، فإذا طهر مال المسلم وزكت نفسه بعد أداء الزكاة أصبح فى حالة يستحق فيها أن يصلى الرسول عليه ، أى يطلب له الرحمة من الله ، وهذه الصلاة فى ذاتها تملأُ نفسه أمنًا وسكنًا لأنه يحس أنه أصبح من المؤمنين الصادقين القريبين من رسول الله المرضى عنهم وهم أهل لصلاته .

ونحن فى يومنا هذا نذكر هذه الآية فى بحثنا عن النظام المالى الإسلامى ، فإن الإسلام يقول : إن المال كله لله سبحانه وهو يستخلفنا فيه ، ومن واجبنا أن نعمل على إنمائه فإذا نما المال كان على صاحبه أن يؤدى زكاته حتى يطهر ماله وتزكو نفسه ، وبدون هذا يظل ماله غير طاهر ولا يجوز له الاستمرار فى ملكيته وهذا يخالف ما عليه معظم الناس من استثمار أموالهم فى المصارف وهم فى معظم الحالات لا يهتمون بالزكاة ، فيظل مالهم غير طاهر أى غير حلال ، ثم تجىءُ أرباح البنوك فتزيد من سوء وضع الإنسان وتزيد حرامه وقد قررنا هذا كله فيما كتبناه عن الربا .

* * *

وتلى ذلك فى هذه السورة الجليلة آيات عظيمة القيمة من الناحية الإسلامية والفقهية ولكنها لا تقدم لنا مادة تدخل فى موضوع هذا البحث وهو الإطار التاريخى لسورة براءة .

وسأستعرض هذه الآيات الباقية من السورة لنرى إن كان فيها إلى جانب ما ذكرنا مادة تنفعنا فى رسم الأحوال السياسية والدينية لأهل المدينة وبقية الجزيرة العربية .

الآيات من ١٠٢ إلى ١٠٩ تدور كلها حول مسجد الضرار الذى بناه فى قباء نفرٌ من المنافقين من بنى عمرو بن عوف من الخزرج من آل قباء ، وكان غرضهم المطوى فى نفوسهم من إنشائه هو أن يكون مركزاً من مراكز تجمعهم ونشاطهم المعادى — للإسلام .

وقد أرادوا أن يعطوا مسجدهم أهمية كبيرة فطلبوا إلى رسول الله ﷺ أن يصلى فيه التماسا للبركة كما قالوا .

وكان فى نفس رسول الله شىء من أمر أولئك الناس فأرجأ الاستجابة إلى ما بعد غزوة تبوك ، وعندما فرغ من الغزوة وسار فى طريق العودة جاءه من الله ما يكشف له خطيئة هذا المسجد وأهله .

وبهذه المناسبة نقول : إن أهل الفقه والحديث يذكرون هنا أبا عامر الذى كان يوصف قبل الإسلام من جانب أصحابه بالراهب ، ولقبه المسلمون بالفاسق ، وكان هذا الرجل من الخزرج ، ولكننا لا نعرف إن كان من بنى عمرو بن عوف أهل قباء ، ولكن الظاهر أنه كان منهم .

وكان فيما يقال نصرانياً وكان يرجو أن تكون له مكانة كبيرة فى المدينة بسبب حماسه لهذا الدين ، ولكننا لا نجد له أتباعاً من النصارى فى المدينة ، ولا نسمع أنه فكر فى إقامة كنيسة وإحضار الأناجيل إليها ، وغاية ما نستطيع قوله أنه كان يتمتع بمركز لا بأس به فى المدينة ويرجو أن يزداد مع الزمن ، ولعله كان مثل عبد الله ابن أُبى بن سلول .

فلمّا جاء رسول الله ﷺ إلى المدينة ودخل الناس فى الإسلام وتحمسوا له ضاع أمر أبى عامر ، فحقد على الإسلام ونبيه .

قال ابن كثير : (شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها . ويظهر أنه لم تكن له مكانة فى قومه كما كان لابن أبى فى قومه فخرج فاراً إلى مشركى قريش فألبهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام أحد ، فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله وكانت العاقبة للمتقين (ص ١٤٩) .

ثم يذكر ابن كثير أن هذا الرجل حفر حفراً فيما بين الصفين وفى إحدى هذه الحفر وضع رسول الله ﷺ وأصابه — ما نعرف وتقدم أبو عامر من قومه ودعاهم لتأييده ، فلما عرفوا كلامه قالوا : لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق يا عدو الله ! فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومى بعدى شر وكان رسول الله ﷺ قد حاول هدايته فأبى فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت طريداً شريداً ، فنالته هذه الدعوة ، لأنه بعد ما حدث فى أحد من نفر المسلمين آخر الأمر ورفضهم إياه ذهب إلى هرقل — يستنصره على النبى ﷺ فوعده ومناه ، فظل مقيماً عنده فكتب إلى أنصاره فى المدينة يبشرهم بأن قيصر سيؤيده ، وطلب إليهم أن يتخذوا معقلاً يقدم عليهم فيه ، فبنوا ذلك المسجد وزعموا أنه للمسلمين وسألوا الرسول ﷺ أن يصلى فيه ، فأنظرهم إلى ما بعد تبوك ثم كشف الله أمرهم ، فلما اقترب من المدينة وهو عائد من تبوك ، فدعا مالك بن الدخشم أخا بنى سالم بن عوف ومعن بن عدى وأخاه عامر بن عدى أخا بنى العجلان ، وأمرهما أن يمضيا فى أصحابهما إلى هذا المسجد فيحرقاه ويهدماه ففعلا

ثم نزلت الآية ١٠٨ من سورة التوبة تؤكد أن هذا المسجد كان مركز ضرار وكفر وتفريق بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله :

« وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ » .

(سورة التوبة ، الآيتان ١٠٧ ، ١٠٨)

والمسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم ، وقد أصبح مكان هذا المسجد

مزملة وقتًا طويلًا بعد ذلك ثم زال – (ابن كثير التفسير ٤ – ١٤٩) .

ثم تأتى بعد ذلك الآية ١١١ من سورة التوبة وهى مشهورة وهامة جدًا وفيها بيان أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ، وأموالهم بأن لهم الجنة ، وأنهم يقاتلون فيقتلون ويقتلون وأن هذا وعد من الله سبحانه للمتقين وهذا الوعد وارد فى التوراة والإنجيل والقرآن :

« وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

والآية ١٢٠ تقول : « مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » .

وقد صدق الله تعالى ، فإن أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أقبلوا على الجهاد راضين ولم يصبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة طوال العهد النبوى . وفى ختام الكلام فى تفسير هذه الآية يقول ابن كثير : (وقال العوفى عن أبيه عن ابن عباس فى هذه الآية : كان ينطلق من كل حى من العرب عصابة فيأتون النبى ﷺ فيسألونه ما يريدون من أهل دينهم ويتفقهون فى أمر دينهم ويقولون ، لنبى الله . ما تأمرنا أن نفعله وأخبرنا ما نقوله لعشائرنا إذا قدمنا وانطلقنا إليهم.

قال : فيأمرهم نبى الله بطاعة الله وطاعة رسوله ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة وكانوا إذا أتوا قومهم نادوا : إن من أسلم فهو منا وينذرونهم حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه وكان رسول الله يخبرهم وينذرون قومهم ، فإذا رجعوا إلى قومهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة (ابن كثير ٤ – ١٧٣) .

والكلام هنا غير متصل تماماً ، ولكن هكذا نقله من الأصل الرجال الذين أشرفوا.

والسورة غنية بعد ذلك بالآيات التى تؤكد روعة القرآن الكريم فى التفسير

وتأكيده للمعنى مرة بعد أخرى مع احتلاف النص فى بعض الأحيان ، وإذا تشابه النص فإن الإنسان لا يلبث أن يدرك أن هذا التشابه ظاهرى وأن القرآن يقدم فى كل آية معنى جديداً ، خذ مثلاً الآيات من ١٠٤ – ١٠٥

« أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » (٩ – ١٠٤) .

والبلاغة القرآنية هنا مبينة فى كل لفظ ، فانظر مثلا قوله إن الله يقبل التوبة عن عباده ، فحرف « عن » هنا عظيم الدلالة والمعنى هنا يختلف كل الاختلاف عن معناه إذا قال : « من » عباده ثم انظر بعد ذلك إلى قوله تعالى : (وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ) والمعنى هنا جديد جدًّا ، فقد رأينا مصارف الصدقات فيما سلف ، ولكننا نرى هنا أن الله يأخذ الصدقات ، أى أنها مهما اختلفت مصارفها فإنها كلها تصير إلى الله سبحانه فإن المسلم هنا يتعامل مع الله مباشرة – مما يزيد جلال الله ويرفع من قدر المؤمن ، والحال هنا هو نفس الحال مع الصلاة ، فنحن فى الصلاة نقف بين يدى الله فيرتفع مكاننا ، وهو يقبل صلاتنا – إذا قبلها – فيزداد جلاله سبحانه وكذلك الحال مع الصيام ، ومع ذلك فإن المسلمين لهم أيضاً نصيب فى عمل كل مسلم ، فإنهم لابد أن يروا نتيجة عمله ويحسوا بها وبعد ذلك نرد جميعاً إلى عالم الغيب والشهادة – وهو الله – فينبئنا بما كنا نعمل :

« وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » (٩ – ١٠٥) .

وبعد ذلك تجىء الآية ١١٧ فترينا كيف « تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِى وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » (٩ – ١١٧) .

وأنت ترى هنا أن الله يضع رسوله فيمن تاب عليهم قبل المهاجرين والأنصار ، لأن الرسول أذن لبعض ضعاف الإيمان أن يتخلفوا عن الخروج معه إلى تبوك وطلب المغفرة لرجل كافر القلب مثل ابن أُبى وأعطى ابنه قميصه ليلبسه إياه فى ساعة الموت إلتماساً للرحمة ،

ثم صلى عليه واشترك فى دفنه دون أن يأذن له الله فى ذلك .

ثم جاء بعد ذلك عتاب الله الجميل للرسول ثم أمره إياه بألا يأذن لأحد منهم فى التخلف إلا إذا جاءه إذن بذلك من الله .

وفى سورة أخرى يعطى الله رسوله الكريم الحق فى الإذن لمن يرى أنه يستحق الإذن له فى التخلف ثم يتوب الله على المهاجرين والأنصار من بعد ما كاد يزيغ قلوب منهم لأنه سبحانه رؤوف رحيم .

وفى الآية ١١٨ إشارة إلى الثلاثة الذين تخلفوا دون مبرر مقبول عقلاً وشرعاً وقعدوا عن الخروج ، وقد رووا بعد ذلك قصصهم وهى تدل على أنهم لم يكونوا أهل كفر بطلبهم ، ولكن الكسل والانصراف إلى مشاغل الحياة قعد بهم ، فغضب الله سبحانه عليهم ثم تاب عليهم وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع العامرى وهلال بن أمية الواقفى .

ويلاحظ أنهم كلهم كانوا من خمسة قبائل من الأوس توقفوا عن الدخول فى الدعوة فسموا أوس مناة ، ثم تابوا ودخلوا فى الدعوة عن إيمان فسموا أوس الله ، وبهم تم إيمان الأوس وإسلامهم جميعاً (انظر تفسير ابن كثير ٤ - ١٦٥ - ١٧٠) .

« وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَلاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلا إِلَيْهِ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » (٩-١١٨) .

ثم تجىء بعد ذلك الآيات ١٢٠ - ١٢٢ وفيها ذكر التوبة العامة على المؤمنين من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ممن لم يتخلفوا عن رسول الله ولم يرغبوا بأنفسهم عن نفسه .

« ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لايُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلايَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلايَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لايُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩-١٢٠) وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاكَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّاكُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ (٩ -١٢١) وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ

طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُم إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (٩-١٢٢).

والكلام فى هذه الآيات ينطبق على المهاجرين والأنصار والأعراب الذين عاصروا رسول الله ﷺ ولكنه أيضاً ينطبق على المسلمين فى كل عصر بعد ذلك ، فما كانت غزوة تبوك ثم سورة التوبة من بعدها إلا درساً عظيماً للمسلمين فى كل العصور فإن المسلم المجاهد مهما لقى من متاعب من ظمإ وتعب وجوع ، ومهما تحمل فى سبيل الإسلام من لقاء الأعداء فإن له ثواباً خاصاً من الله على كل شيء من ذلك إلى جانب ما ترزقه الجماعة إياه من أجر أو مكافأة ، فإن أجر الناس شيء وأجر الله شيء ، وهذا الأخير هو الأعظم والباقى .

ومعانى هذه الآيات غاب عن النفر الذين تجمعوا فى المدينة فى منتصف خلافة عثمان ، وقد أتوا إليها ليطالبوا عثمان بالجزاء والمكافأة ولم يكن لدى عثمان ما يكافئهم به ، وقد حاول عثمان أن ينصحهم ويلفت نظرهم إلى أن المكافأة الحقيقية تأتى من عند الله سبحانه وأن مكافأة الناس للمجاهد لا تعد شيئاً إلى جانب مكافأة الله ، لأن الله سبحانه أعلم بما تحمله كل مسلم على حدة وما أنفق كل منهم من ماله مما لا يعلمه الناس ، ولكن الله يعلمه ويكافىء عليه

أقول لو علم معاصرو عثمان بالمعانى العظيمة التى تضمنتها هذه الآيات العظيمات لما أصروا على مطالبة عثمان ولما كانت الفتنة الكبرى التى نظر فيها رجال مثل معاوية إلى ما يمكن أن يصيبهم من الدنيا من ورائها ، فعرضوا على عثمان أن يخرج إليهم – إلى دمشق مثلاً – ، من المدينة فإن لديهم هناك الرجال والأموال ، وهم يستطيعون نصرة عثمان – والحكم باسمه لأن ذلك لم يكن فى يده فى المدينة ولكن عثمان رفض أن يترك مدينة رسول الله ﷺ فى سبيل الحكم أو أى عرض من أعراض الدنيا انظر التفاصيل فى تفسير ابن كثير الجزء الرابع .

* * *

وبعد أن تأتينا السورة بإشارات بالغة البلاغة والحكمة عن كفر الكافرين ونفاق المنافقين ، وما أعد اللهُ لهؤلاء وأولئك من سوء العذاب تجىء نهاية هذه السورة ،

وهما آيتان مشهورتان ولا يزال المسلمون يكررونهما فى شتى ما يلم بهم من ظروف نظراً لما فيهما من الحكمة العظيمة والبلاغ الكامل ، وما تضفيانه على قلب المؤمن من إيمان بالله وسعادة بهذا الإيمان :

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (٩ ـ ١٢٨) فإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٤-١٢٩) .

فإن المسلم فى كل عصر أو زمان أو مكان لايزال يشعر بأن الله أرسل إلينا رسولا من أنفسنا يشاركنا آلامنا ومتاعبنا ، إذ يصعب عليه رؤية ما نعانى ونقاسى ، وهو صلى الله عليه وسلم لايزال يدعو للمؤمنين بالمغفرة والمعونة فيستجيب الله له فى حالات المؤمنين الصادقين أما غير المخلصين الذين يتولون عن الرسول ودعوته فإن الرسول يتركهم إلى الله سبحانه ، وهو حسبه «عليه توكلوا وهو رب العرش العظيم » .

حسين مؤنس
عضو المجمع

المصادر والمراجع

المصادر المخطوطة :

البلاذرى : أحمد بن يحى بن جابر :

أنساب الأشراف ج ٩ ، ١٠

مصور نسخة دار الكتب المصرية – القاهرة رقم ١١٠٣ أنساب الأشراف حـ ٤ .

مصور نسخة الخزانة الملكية فى الرباط رقم ٢٥١٨

مصور الخزانة العامة فى الرباط رقم ٦٩١٤

الكلاعى البلنسى . سليمان بن موسى ، أبو الربيع :

الاكتفاء من مغازى رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء .

مصور نسخة جامعة الكويت ج ١ رقم ٢٥٥ ، ج ٢ رقم ٢٥٦

ابن الكلبى : هشام بن محمد ، أبو المنذر :

جمهرة النسب

مصور نسخة المتحف البريطانى ج ١ رقم ٢٣٢٩٧ ، ج ٢ رقم ٢٢٣٧٦

المصادر المطبوعة :

ابن الأبرص : عبيد ، أبو زياد الأسدى :

(ديوان عبيد بن الأبرص) ، تحقيق حسين نصار ، مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ، طبعة ١ – ١٩٥٧

ابن أبى الحديد : عبد الحميد بن هبة الله بن محمد ، عز الدين :

(شرح نهج البلاغة) ، تحقيق حسن تميم ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٣ ، ٥ أجزاء .

ابن الأثير : على بن محمد ، أبو الحسن عز الدين الجزرى :

(أسد الغابة فى معرفة الصحابة) ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت (ب ت)
٥ أجزاء

(الكامل فى التاريخ) ، دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٦٥ . ١٣ جزءا

(اللباب فى تهذيب الأنساب) ، دار صادر ، بيروت ، (ب ت) ٣ أجزاء .

ابن أعثم : أحمد بن أعثم ، أبو محمد الكوفى :

(كتاب الفتوح) ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، الهند . ١٩٦٨ —
١٩٧٥ ، ٨ أجزاء .

الباقلانى : محمد بن الطيب ، أبو بكر :

(إعجاز القرآن) ، تحقيق أحمد صقر دار المعارف بمصر ١٩٦٣

البخارى : إسماعيل بن إبراهيم الجعفى ، أبو عبد الله :

(كتاب التاريخ الكبير) ، مؤسسة الكتب الثقافية . بيروت . ١٩٨٦ ٨ أجزاء

ابن بدران : عبد القادر بن أحمد :

(تهذيب تاريخ دمشق) ، مطبعة الترقى بدمشق ، ١٣٢٩ — ١٣٥١ هـ ، ٧ أجزاء .

البسوى : يعقوب بن سفيان ، أبو يوسف :

(كتاب المعرفة والتاريخ) ، تحقيق أكرم ضياء العمرى . مطبعة الإرشاد ، بغداد ،
عام ١٩٧٤ — ١٩٧٦ ، ٣ أجزاء .

البغدادى : عبد القادر بن عمر :

(خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب) ، المطبعة السلفية . القاهرة ١٣٤٧ هـ ،
٤ أجزاء .

البلاذری : أحمد بن يحيى بن جابر :

(أنساب الأشراف) ج ١ ، تحقيق محمد حميد الله ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٩

(فتوح البلدان) ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، عام ١٩٥٦ – ١٩٥٨ ، ٣ أجزاء

– الشيخان ، أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وولدهما ، من كتاب الأنساب ، تحقيق إحسان صدقى – الكويت ، ١٩٨٩

البيهقى : إبراهيم بن محمد :

(المحاسن والمساوئ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ٢ ج .

التبريزى : يحى بن على ، أبو زكريا :

(شرح ديوان الحماسة لأبي تمام) ، تحقيق محمد عبد القادر سعيد ، مكتبة النورى دمشق (ب ت) .

الترمذى : محمد بن عيسى السلمى ، أبو عيسى :

(سنن الترمذى) ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٧٨

ابن تغرى بردى : يوسف ، أبو المحاسن :

(النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) ، هيئة الكتاب بالقاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٠ أجزاء .

الجاحظ : عمرو بن بحر ، أبو عثمان :

(البيان والتبيين) ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجى فى القاهرة ، مكتبة الهلال فى بيروت ، طبعة ٣/١٩٦٨ ، ٤ أجزاء .

ابن الجوزى : عبد الرحمن بن على بن محمد ، أبو الفرج

(صفة الصفوة) ، تحقيق محمود فاخورى ، دار الوعى ، حلب ، طبعة ١ / ١٩٦٩ ، ٢ ج .

(مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب) ، تحقيق زينب إبراهيم القاروط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة ٢ / ١٩٨٢

حاتم الطائى : حاتم بن عبد الله ، أبو عدى :

(ديوان حاتم الطائى) ، تحقيق كرم بستانى ، دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٦٣

ابن حبيب البغدادى : محمد بن حبيب بن أمية .

(كتاب المحبر) ، تحقيق أيلزة ليختن شتيتر ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، الهند ، ١٩٤٢

(كتاب المنمق فى أخبار قريش) ، تحقيق خورشيد فاروق ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، الهند ، ١٩٦٤

ابن حجر : أحمد بن على ، أبو الفضل ، شهاب الدين ، العسقلانى :

(الإصابة فى تمييز الصحابة) ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، مصور الطبعة الأولى ، ١٣٢٨ هـ ، ٤ أجزاء .

(تهذيب التهذيب) ، دائرة المعارف النظامية ، حيدر أباد الدكن ، الهند ، عام ١٣٢٥ هـ ، ١٢ جزءا .

(فتح البارى بشرح البخارى) ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ١١ جزءا .

ابن حزم : على بن أحمد بن سعيد ، أبو محمد .

(جمهرة أنساب العرب) ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٢

حسان بن ثابت :

(ديوان حسان بن ثابت) ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦١

الحميرى : محمد بن عبد المنعم ، أبو عبد الله :

(الروض المعطار فى خبر الأقطار) ، تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، — بيروت ، ١٩٧٥

الحميرى : نشوان بن سعيد ، أبو سعيد :

(الحور العين) ، تحقيق كمال مصطفى ، دار آزال ، بيروت ، طبعة ٢ ، ١٩٨٥

ابن حنبل : أحمد بن محمد ، أبو عبد الله :

(مسند الإمام أحمد بن حنبل) ، المكتب الإسلامى للطباعة والنشر ، دار صادر ، بيروت (ب ت) — وطبعة دار المعارف بالقاهرة ، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ، ١٥ جزءًا .

الخطيب البغدادى : أحمد بن على ، أبو بكر :

(تاريخ بغداد) ، دار الكتاب العربى ، بيروت (ب ت) ، ١٤ جزءًا .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ، أبو زيد .

(كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر .) ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٥٨— ١٩٦٧ ، ٧ أجزاء على أساس طبعة بولاق — القاهرة .

ابن خلكان : أحمد بن محمد ، أبو العباس ، شمس الدين :

(وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) ، تحقيق محمد عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ٦ أجزاء .

ابن خياط : خليفة بن خياط العصفري البصري :

(تاريخ خليفة بن خياط) ، تحقيق سهيل زكار ، وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٦٧ - ١٩٦٨ ، ٢ ج .

الدميري : محمد بن موسى ، أبو البقاء ، كمال الدين :

(حياة الحيوان الكبرى) ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ١٩٦٣ . ٢ ج .

الديكار بكري : حسين بن محمد بن الحسن .

(تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس) ، مؤسسة شعبان ، بيروت ، مصور نسخة المطبعة الوهبية ، القاهرة ، ١٢٨٣ هـ ، ٢ ج .

الدينوري : أحمد بن داود ، أبو حنيفة .

(الأخبار الطوال) ، تحقيق عبدالمنعم عامر ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، عام ١٩٦٠

الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان ، شمس الدين .

(تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام) ج ١ ، السيرة النبوية ، القاهرة ١٩٧٠ ج ٣ ، تحقيق حسام الدين القدسي ، مطبعة القدس ، القاهرة ١٩٧٩

(تذكرة الحفاظ) ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، الهند ، طبعة ٣ / ١٩٥٦ ، ٤ أجزاء .

(سير أعلام النبلاء) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، طبعة ٣ / ١٩٨٦ ، ٢٥ جزءا .

(العبر في خبر من غبر) ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٦٠ - ١٩٦٦ ، ٥ أجزاء .

الزبيدي . محمد بن محمد ، أبو الفيض ، مرتضى :

(تاج العروس من جواهر القاموس) ، مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٦٥

الزبير بن بكار . أبو عبد الله ، القرشي الأسدي :

(الأخبار الموفقيات) ، تحقيق سامي مكي العاني ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٧٢

الزبيري : مصعب بن عبد الله ، أبو عبد الله :

(نسب قريش) ، تحقيق أ . ليفي بروفنسال ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٣ ، وطبعة عبد السلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٧

ابن زنجويه : حميد :

(كتاب الأموال) ، تحقيق شاكر فياض ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الرياض ، ١٩٨٦ ، ٣ أجزاء

السخاوي : محمد بن عبد الرحمن ، شمس الدين :

(الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) ، تحقيق فرانز روزنتال ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦٢ ، وطبعة أحمد الصالح علي ، بغداد ج واحد كبير .

السرخسي . محمد بن أحمد ، أبو بكر ، شمس الدين :

(كتاب المبسوط) ، دار الدعوة ، استانبول ، ١٩٨٢ ، ٣٠ جزءا .

ابن سعد . محمد بن سعد بن منيع الزهري :

(الطبقات الكبرى) ، دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٥٩ ، ٨ أجزاء .

(الطبقات الكبرى – القسم المتمم) ، تحقيق زياد منصور ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، طبعة ٢ / ١٩٨٧ ، ٤ أجزاء .

السمعانى : عبد الكريم بن محمد ، أبو سعد .

(الأنساب) ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن . الهند . ١٩٦٢

السمهودى : على بن أحمد ، نور الدين :

(وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) ، تحقيق محمد عبد الحميد . دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، (ب ت)

السيوطى : عبد الرحمن بن أبى بكر ، جلال الدين :

(تاريخ الخلفاء) ، تحقيق قاسم الرفاعى ، محمد العثمانى . دار القلم . بيروت عام ١٩٨٦

(الشماريخ فى علم التاريخ) ، تحقيق إبراهيم السامرائى . مطبعة أسعد . بغداد . عام ١٩٧١

(طبقات الحفاظ) ، تحقيق على محمد عمر ، مكتبة وهبة . القاهرة . ١٩٧٣ .

ابن شبه عمر بن شبه النميرى البصرى :

(تاريخ المدينة المنورة – أخبار المدينة النبوية) . تحقيق فهيم محمد شلتوت . دار الأصفهانى للطباعة ، جدة ، طبعة ٢ / ١٣٩٣ . ٤ أجزاء .

الصفدى . خليل بن أيبك ، صلاح الدين .

(نكت الهميان فى نكت العميان) ، تحقيق أحمد زكى . المطبعة الجمالية– مصر ، ١٩١١ .

(الوافى بالوفيات) ، جمعية المستشرقين الألمانية ، ١٩٤٩ – ١٩٨٢ . فرنز شتاينر– ڤسبادن .

الطبرى : محمد بن جرير ، أبو جعفر :

– (تاريخ الرسل والملوك) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٠ – ١٩٦٩ ، ١٠ أجزاء .

– تفسير الطبرى – ٢٠ جزءًا – القاهرة (ب – ت)

العباسى : أحمد بن عبد الحميد :

(عمدة الأخبار فى مدينة المختار) ، تحقيق حمد الجاسر ، طبعة ٥ – ب ت

ابن عبد البر : يوسف بن عبد الله ، أبو عمر القرطبى :

(الاستيعاب فى معرفة الأصحاب) ، تحقيق على البجاوى ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، (ب – ت) ، ٤ أجزاء .

(بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس) ، تحقيق محمد مرسى الخولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة ٢ / ١٩٨٢ ، ٣ أجزاء .

(الدرر فى اختصار المغازى والسير) ، تحقيق شوقى ضيف ، دار المعارف بمصر ١٩٨٣

ابن عبد ربه : أحمد بن محمد ، أبو عمر .

(العقد الفريد) ، تحقيق أحمد أمين ، أحمد الزين ، إبراهيم الإبيارى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ٧ أجزاء .

أبو عبيد : القاسم بن سلّام :

(كتاب الأموال) ، تحقيق محمد هراس ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ١٩٦٨

ابن عساكر : على بن الحسن ، أبو القاسم :

(تاريخ مدينة دمشق – تراجم النساء) ، تحقيق سكينة الشهابى ، دمشق ، ١٩٨٢

العسكرى : الحسن بن عبد الله ، أبو هلال :

(كتاب الأوائل) ، تحقيق محمد الوكيل ، مطبعة دار الأمل ، طنجة ، المغرب الأقصى ، (ب - ت) .

ابن العماد : عبد الحى بن أحمد ، أبو الفلاح .

(شذرات الذهب فى أخبار من ذهب) ، المكتب التجارى ، بيروت ، (ب - ت) ٨ أجزاء .

الغزالى : محمد بن محمد ، أبو حامد :

(إحياء علوم الدين) ، دار الفكر ، مصور طبعة لجنة الثقافة الإسلامية ، القاهرة ، ١٣٥٦ هـ ، ١٦ جزءًا

(التبر المسبوك فى نصيحة الملوك) ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٩٦٨

الغسانى : محمد بن محمد بن أبى الحفص :

(كتاب الخذلان) ، نشره شاكر مصطفى على سبع حلقات فى صحيفة القبس الكويتية ، من ١٩٨٧/١/٢٣ - ١٩٨٧/٣/١٣ ، الأعداد ، ٥٢٨٠ ، ٥٢٩٤ ، ٥٣٠١ ، ٥٣٠٨ ، ٥٣١٥ ، ٥٣٢١ ، ٥٣٢٨

ابن فارس : أحمد بن زكريا الرازى :

(مجمل اللغة) ، تحقيق هادى حمورى ، معهد المخطوطات العربية ، الكويت ، عام ١٩٨٥ ، ٤ أجزاء .

أبو الفرج الأصفهانى : على بن الحسين الأموى :

(الأغانى) ، دار الثقافة ، بيروت ، طبعة ٣ - ١٩٦٢ ، ٢٥ جزءًا .

الفيومى : أحمد بن محمد :

(المصباح المنير) ، تحقيق مصطفى السقا ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ، (ب - ت) ، ٢ ج

القالى : إسماعيل بن القاسم البغدادى ، أبو على .

(الأمالى) ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، طبعة ٢ - ١٩٢٦

ابن قتيبة : عبد الله بن مسلم ، أبو محمد :

(الشعر والشعراء) ، تحقيق أحمد شاكر ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٦ ، ٢ ج .

(عيون الأخبار) ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، عام ١٩٦٣ ، ٤ أجزاء .

(المعارف) ، تحقيق ثروت عكاشة ، دار المعارف بمصر ، طبعة ٣ - ١٩٦٩

ابن قدامة المقدسى : عبد الله بن أحمد ، أبو محمد ، موفق الدين :

(التبيين فى أنساب القرشيين) ، تحقيق محمد نايف الدليمى ، عالم الكتب مكتبة النهضة العربية ، بيروت ، طبعة ٢ - ١٩٨٨

القسطلانى : أحمد بن محمد الخطيب ، شهاب الدين :

(إرشاد السارى إلى شرح صحيح البخارى) ، المطبعة الكبرى الأميرية ، القاهرة ، عام ١٣٢٣ هـ ، ١٠ أجزاء .

القلقشندى : أحمد بن على ، أبو العباس :

(صبح الأعشى فى صناعة الإنشا) ، هيئة الكتاب ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ١٤ جزءًا .

(قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان) ، تحقيق إبراهيم الأبيارى ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، طبعة ٢ - ١٩٨٣

(نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب) ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٩

القمي : عباس بن محمد رضا :

(الكنى والألقاب) ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٩٥٦ ، ٣ أجزاء .

ابن كثير : إسماعيل بن عمر ، عماد الدين .

(البداية والنهاية) ، مكتبة المعارف ، بيروت ، مكتبة النصر ، الرياض ، ١٩٦٦ ، ١٤ جزءا .

(تفسير القرآن العظيم) ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ٧ جـ .

الكلاعي البلنسي : سليمان بن موسى ، أبو الربيع :

(الاكتفاء من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء) ، تحقيق مصطفى عبد الواحد مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مكتبة الهلال ، بيروت ، ج ١ / ١٩٦٦ ، ج ٢ / ١٩٧٠

ابن الكلبي : هشام بن محمد ، أبو المنذر :

(جمهرة النسب) ج ١ ، تحقيق عبد الستار فراج ، مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٨٣

الكندي : محمد بن يوسف .

(ولاة مصر) ، تحقيق حسين نصار ، دار بيروت ، دار صادر ، ١٩٥٩

الماوردي : علي بن محمد ، أبو الحسن :

(الأحكام السلطانية والولايات الدينية) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، طبعة ٢ / ١٩٦٦

المبرد : محمد بن يزيد أبو العباس :

(الكامل) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، السيد شحاتة ، دار نهضة مصر ، القاهرة (ب ـ ت) ، ٤ أجزاء

المحب الطبرى : أحمد بن عبد الله ، أبو العباس ، محب الدين :

(الرياض النضرة فى مناقب العشرة) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ٤ أجزاء .

المدائنى : على بن محمد ، أبو الحسن :

(كتاب التعازى) ، تحقيق ابتسام الصفار ، بدرى فهد ، مطبعة النعمان ، النجف ، ١٩٧١

المرزبانى : محمد بن عمران ، أبو عبيد الله :

(معجم الشعراء) ، تحقيق عبد الستار فراج ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة عام ١٩٦٠

(الموشح) ، تحقيق على البجاوى ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٥

المزى : يوسف ، أبو الحجاج ، جمال الدين .

(تهذيب الكمال فى أسماء الرجال) ، تحقيق بشار عواد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، طبعة ٤ ، ١٩٨٥

المسعودى : على بن الحسين ، أبو الحسن :

(التنبيه والأشراف) ، مكتبة خياط ، بيروت ، ١٩٦٥

(مروج الذهب ومعادن الجوهر) ، تحقيق يوسف داغر ، دار الأندلس ، بيروت ، عام ١٩٦٥ ، ٤ أجزاء .

المعلوف : يويس اليسوعى .

(المنجد فى اللغة) ، دار المشرق ، بيروت ، طبعة ٢٠ / ١٩٦٩

المفضل الضبي : المفضل بن محمد ، أبو العباس :

(ديوان المفضليات) ، تحقيق كارلوس يعقوب لايل ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٢٠

المنذري : عبد العظيم بن عبد القوى ، زكى الدين :

(مختصر صحيح مسلم) ، تحقيق محمد ناصر الألباني ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت - طبعة ٣ / ١٩٧٩

ابن منظور : محمد بن مكرم ، أبو الفضل جمال الدين :

(لسان العرب) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة (ب - ت) ٢٠ جزءا .

الميداني : أحمد بن محمد ، أبو الفضل :

(مجمع الأمثال) ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦١ ، ٢ ج .

أبو نعيم الأصفهاني : أحمد بن عبد الله :

(حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، طبعة ١٩٨٥/٤ ١٠ أجزاء .

النويري : أحمد بن عبد الوهاب ، شهاب الدين .

(نهاية الأرب في فنون الأدب) ، ١٩ جزءا ، تحقيق محمد إبراهيم أبو الفضل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥

ابن هشام : عبد الملك بن هشام ، أبو محمد :

(سيرة النبي ﷺ - السيرة النبوية) ، تحقيق مصطفى السقا ، إبراهيم الإبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، ١٩٣٦ ، ٤ أجزاء .

الواحدى : على بن أحمد ، أبو الحسن :

(أسباب نزول القرآن)، تحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ١٩٦٩

الواقدى : محمد بن عمر :

(فتوح الشام) ، المكتبة الأهلية ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ٢ ج .

(المغازى) ، تحقيق مارسدن جونس ، مؤسسة الأعلمى ، بيروت ، مصور مطبعة لندن ، ١٩٦٦ ، ٣ أجزاء .

الوشاء : محمد بن أحمد ، أبو الطيب :

(الموشى ، أو الظرف والظرفاء) ، دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٦٥

وكيع القاضى : محمد بن خلف بن حيان :

(أخبار القضاة) ، عالم الكتب ، بيروت ، (ب ـ ت) ، ٣ أجزاء .

ياقوت الحموى : ياقوت بن عبد الله ، أبو عبد الله :

(إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ـ معجم الأدباء) ، دار إحياء التراث العربى، (ب ـ ت) ، ٢٠ جزءا .

(معجم البلدان) ، دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٥٥ ، ٥ أجزاء .

اليعقوبى : أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح :

(تاريخ اليعقوبى) ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ٢ ج

أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم :

(كتاب الخراج) ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، طبعة ٤ / ١٣٩٢ هـ

المراجع :

إبراهيم مصطفى ، أحمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد على النجار :

(المعجم الوسيط) ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المكتبة العلمية ، طهران ، (ب ت)

جواد على :

(المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، مكتبة النهضة ، بغداد ، ١٩٦٨ - ١٩٧٣

حميد الله : محمد :

(مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة) ، دار الإرشاد ، بيروت طبعة ٣ - ١٩٦٩

الدباغ : مصطفى مراد :

(بلادنا فلسطين) ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٥

الراشد : سعد بن عبد العزيز :

(الربذة) ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، ١٩٨٦

الزركلى : خير الدين محمود :

(الأعلام) ، بيروت ، طبعة ٣ / ١٩٦٩ ، ١٢ جزءا .

شيت خطاب : محمود :

(قادة فتح الشام ومصر) ، دار الفتح ، بيروت ، ١٩٦٥

صفوت : أحمد زكى :

(جمهرة خطب العرب) ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ، طبعة ٢ / ١٩٦٢ ، ٣ أجزاء .

(جمهرة رسائل العرب) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، ١٩٣٧ ، ٤ أجزاء .

الطنطاوي : علي وناجي :

(أخبار عمر) ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٥٩

عبد الباقي : محمد فؤاد :

(اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان) ، المطبعة العصرية الكويت ، ١٩٧٧
٣ أجزاء .

(المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) ، دار مطابع الشعب ، القاهرة ، (ب ت)

العلي : عبد المنعم صالح :

(دفاع عن أبي هريرة) ، مكتبة النهضة ، بغداد ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٧٣

كحالة : عمر رضا :

(أعلام النساء) ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، طبعة ٢ / ١٩٥٩ ، ٥ أجزاء .

(معجم قبائل العرب) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، طبعة ٢ / ١٩٦٨ ، ٣ أجزاء .

محمد علي أدلبي : محمد عوامة :

(فهرس الأعلام المترجمين في الطبقات الكبرى لابن سعد) ، مؤسسة الرسالة ،
بيروت ، ١٩٨٦

ونسنك . أ . ى :

(المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) ، مكتبة بريل ، لندن ، ١٩٣٦ – ١٩٨٨
٨ أجزاء .

دائرة المعارف الإسلامية ، طبعة ١ (الترجمة العربية) ١٣ جزءًا .

الموسوعة الفقهية : وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، الكويت ، طبعة ٣ / ١٩٨٤

فهرس

الآيات القرآنية الواردة بالبحث وفق ترتيب ورودها بالمصحف الشريف

١ - يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى .. الآية - سورة الحجرات - الآية ١٣
٢ - يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ... سورة النساء ، الآية الأولى .
٣ - نزل به الروح الأمين على قلبك . . الآية - سورة الشعراء ، الآية ١٩٣
٤ - وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ... الآية - سورة الرعد ، الآية ٣٧
٥ - قرآناً عربياً غير ذى عوج ... الآية - سورة الزمر ، الآية ٢٨
٦ - إن هذه أمتكم أمة واحدة ... الآية - سورة الأنبياء ، الآية ٩٢
٧ - إن الدين عند الله الإسلام . الآية - سورة آل عمران ، الآية ١٩
٨ - ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل .. الآية - سورة الحج ، الآية ٧٨
٩ - فإن توليتم فما سألتكم من أجر . . الآية - سورة يونس ، الآية ٧٢
١٠ - وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ... الاية - سورة البقرة ، الاية ١٢٧
١١ - ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب . . الآية - سورة البقرة ، الاية ١٣٢
١٢ - أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ... الآية - سورة البقرة ، الاية ١٣٣
١٣ - رب قد ءاتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث .. الآية - سورة يوسف الاية ١٠١
١٤ - يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ... الآية - سورة يونس ، الآية ٨٤
١٥ - إنه من سليمان وأنه بسم الله الرحمن الرحيم . . الآية - سورة النمل : الآية ٣٠
١٦ - فتبسم ضاحكاً من قولها ... الآية - سورة النمل ، الاية ١٩

١٧ - وأسلمت مع سليمان ... الآية - سورة النمل ، الآية ٤٤

١٨ - فلمَّا أحس عيسى منهم الكفر ... الآية - سورة آل عمران ، الآية ٥٢

١٩ - ومن يبتغ غير الإسلام دينًا .. الآية - سورة آل عمران ، الآية ٨٥

٢٠ - لكم دينكم ولي دين - سورة الكافرون ، الآية ٦

٢١ - مالك يوم الدين - سورة الفاتحة - الآية ٣

٢٢ - يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ... الآيتين - سورة المؤمنون ، الآيتان ٥١ و ٥٢

٢٣ - وما كان الناس إلا أمة واحدة ... الآية - سورة يونس ، الآية ١٩

٢٤ - لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا ... الآية - سورة المائدة ، الاية ٥١

٢٥ - ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ... الآية - سورة المنافقون ، الآية ٨

٢٦ - الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم .. الآية - سورة الأنعام ، الآية ٨٢

٢٧ - إن الله يدافع عن الذين آمنوا . . الآية - سورة الحج ، الآية ٣٨

٢٨ - ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلًا - سورة النساء ، الاية ١٤١

٢٩ - ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا ... الآية - سورة الأعراف ، الآية ٩٦

في آفاق لغة الوحي

للأستاذ حسن عبد الله القرشي

هَفَا النجمُ ، يعنو لأعتَابها ... وغنَّى الزمَانُ على بَابِهَا
ودانَ لها المجدُ وهْو العصِيُّ ... وأرخَى العنَانَ لِخُطَّابِهَا
ترقرقَ منها الضياءُ البهيجُ ... وشعشع فى أفْقِ أصْحابِهَا
وتوَّجَهَا اللهُ ـ ياللجلالِ ـ ... بوحْيٍ تَجَلَّى بِمحرَابِهَا
غَمَائِمُهَا ثرَّةٌ بالحَيَاة ... وَوَشْىُ الربيعِ بأهْدَابِهَا
هى (الضَّادُ) ما ظَفِرت أُمةٌ ... بِمثلِ جَنَاها ، وأَطْيَابِهَا
تَعَهَّدَهَا رَبُّهَا بالبَقَاء ... فَهَلْ مُجْدِبٌ فَيْضُ إخْصَابِها ؟
تَأَلَّقُ فى صَفَحاتِ الخُلُودِ ... فَتنجابُ ثَوْرةُ حُجَّابِهَا
وَمَا شَفَّ عن شُرُفَاتِ الوُجُودِ ... كَمِثْلِ سَنًا شَعَّ مِنْ غَابِهَا
فَمَا عِشْقُها غيرُ مَوْتٍ بها ... غَرَامًا لِتَهْنَا بِتَرْحَابِهَا
وَكَمْ يَحْفِرُ الصَّخرَ صَبٌّ بها ... ليحظى بِتَرشَافِ أَكْوَابِهَا
لينقادَ منها النُّفُورُ الشَّمُوسُ ... وَيُسْتَعذَبُ المُرُّ من صَابِهَا
وينهمرُ الدُّرُّ من بَحْرِهَا ... ويَحْدُو الرَّحِيقُ لِشُرَّابِهَا
أَنُوفٌ هى (الضَّادُ) أن تُجتنى ... لِغَيرِ صَبُورٍ لأتْعَابِهَا
لغيرِ مُلحٍّ شَدِيدِ المِرَاسِ ... عميق المعَاناةِ وَهَّابِهَا
يجوبُ الدُّروبَ احتفاءً بها ... لِيُسْلَكَ فى سِمْطِ أَقْطَابِهَا

* * *

(*) أُلقيت فى الجلسة الثانية صباح يوم الثلاثاء ٢ من شعبان ١٤١٠ الموافق ٢٧ من فبراير (شباط) ١٩٩٠ م.

وأعرض عنها قصيرو الأداةِ وَمَا مِنْهُمُــو من تَغَنَّى بِهَا
فَمَا عَبأَتْ بِالأُلى أعرضُـوا وَمَا وَصَـلتْهم بِأَسْـبَابِهَا

* * *

بنى (الضَّادِ) يا جَمَرات الحياة لأَعْـدَائِهَا . ولسُـلَّابِها
ويا شُهُب الحق كفُّوا الأَذى وَرُدُّوا البُغَـاةَ لاعتابها
هو الدَّمُ نادى (بنى يَعرُب) فَهَـلَّا تَحِنُّ لأَنْسَابِهَا
عَتَا الظُّلمُ منْ متحدّى الكِرام حُمـاةِ (يَهُـوذا) وأذنابِهَا
أُسُـودٌ عَلَيْنَا وما مِنْهُمُو سِوى خَائِرِ النفسِ هَيَّـابِهَا
وأرغَم جَورُ الطغاةِ الأُباةَ لتعنُـوا لِصَـولَةِ إِرْهابِهَا
فَمَا من (مُثَنَّى) يَسُوق الحُتُوف و (مُعْتَصِمٍ) دونَ أَنْيَابِهَـا
ومَا مِن (صَلاحٍ) يرصُّ الصُّفُو فَ ويُقصِى العروبةَ عن عَابِهَا
تَفرُّقُهَا قَادَهَـا للكَلال وطُـول التَّنَاحرِ أَوْدَى بِهَا
تَمَادَى العَـدوُّ نكالاً بِهَا فَجُنَّ الهـوان بِأَلْبَابِهَـا
ولا من نَصِيرٍ وأيْنَ النصيرُ لِخاذلِ نَفْسٍ فَأَزْرَى بها ؟
تَنَاسَتْ مع الذُّلِّ تَاريخَهَا لِلَهْـو الحَيَاةِ ، وأَلْعَـابِهَا
فَلَمْ تَسْتَجِبْ لِصُراخ النَّذِيرِ ولَمْ تَسْتَشِفَّ لَظَى مَا بِهَـا
فَلجَّ الصَّـدِيقُ بتجريحِها وهَامَ العَـدوُّ بِأَغْضَابِهَـا
وما هِىَ إِلَّا جَنَى التضحيات وإن لَبِستْ غَـيرَ أثْوَابِهَا
فَهَل يا بنى (الضَّادِ) من وَثْبَةٍ تَرُدُّ الكماةَ لأَسْرابِهَـا !

* * *

وِيا (مَجمع الضادِ) من صَفْوَةٍ ... تَغَارُ النُّجُومُ لأَحْسَابِهَا
عَلَت بالنُّهى فَوْقَ هَام الدُّنَى ... وعَزَّتْ بجَوْهرِ آرابهَا
تسامتْ على تُرَّهات الزَّمانِ ... فَلَمْ تَسْتَرِقَّ لأَوْصَابِهَا
وقدَّمتِ الشَّهدَ، كم غادرتْ ... حُطامَ الحَيَاة لأَنْصَابِهَا
وكَم قد أَراقَتْ ضياءَ العُيُونِ ... فِدَى (الضادِ) قُربى لأَحْبابها
سَتُجزى بما بذلتْ فى غَدٍ ... جِنَانًا تَهَشُّ لِطُلَّابِهَا
وتُزهَى بِهَا غُرُفاتُ النَّعِيم ... فَدَارُ البَقَاءِ لأَرْبَابِهَا!

حسن عبد الله القرشي
(عضو المجمع المراسل من السعودية)